دِراسَاتٌ قُرآنِيَّةٌ (5)

سُورَةُ البَقَرَةِ (3)

(124 ـ 169)

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الـــكـــتـــاب: **دراسات قرآنية**(5)
سورة البقرة (3) (124 ـ 169)

تـــألـــيـــف: **الشيخ مصطفى قصير** قدس سره

مراجعة وتنسيق: **مركز المعارف للمناهج والمتون التعليميّة**

إصـــــدار: **دار المعارف الإسلامية الثقافية**

الـطـبـعـة: الأولى - 2019م/1440هـ

تصميم وطباعة: DBOUK 00961 3 336218

ISBN 978-614-467-???-?

books@almaaref.org.lb

00961 01 467 547

00961 76 960 347

موسوعة العلامة الشيخ مصطفى قصير العاملي

دراسات قرآنية (5)

سورة البقرة (3)

(124 ـ 169)

الجزء التاسع

دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

الآية (124) 9
الآية (125) 12
الآية (126) 17
الآية (127) 23
الآية (128) 24
والتوبة توبتان 25
الآية (129) 26
الآية (130) 27
الآية (131) 29
الآية (132) 29
مراتب الإسلام 29
الآية (133) 30
ومن الآداب في حال الاحتضار 32
الآية (134) 34
الآية (135) 36
الآية (136) 37
الآية (137) 39
الآية (138) 39
الآية (139) 40
الآية (140) 41

ظلم كتمان الشهادة 42
الآية (141) 43
الآية (142) 43
ما المراد بالقبلة؟ 44
فلسفة اتّخاذ القبلة 45
لماذا تغيير القبلة؟ 46
أحكام القبلة 47
الآية (143) 49
الآية (144) 56
الآية (145) 60
الآية (146) 62
الآية (147) 65
الآية (148) 66
الآية (149) 66
الآية (150) 67
الآية (151) 68
الآية (152) 72
الآية (153) 75
الآية (154) 77
ما المقصود من سبيل الله؟ 78
القتل في سبيل الله 79
لماذا نفيُ الموت عن الشهيد؟ 79
تجرّد النفس 80
عالم البرزخ 80
حياة الشهداء في سبيل الله 81
فضل القتل في سبيل الله 82
بين القتل في سبيل الله والشهادة 82

الآية (155) 83
الآية (156) 88
المصيبة 88
الآية (157) 90
الآية (158) 92
الصفا 92
الشعائر 93
الآية (159) 97
الآية (160) 102
الآية (161) 103
الآية (162) 103
الآية (163) 104
الآية (164) 105
الآية (165) 105
الآية (166) 109
الآية (167) 110
الآية (168) 110
الآية (169) 116
قائمة المصادر والمراجع 119

الآية (124)

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

هذه الآية بداية لذِكْر جملة من قصص النبيّ إبراهيم عليه السلام، وهي توطئة لآيات تغيير القبلة، وأحكام الحجّ، وغير ذلك من معارف الدين.

ويبدو أنّ موضوع الآية حدث في أواخر حياة النبيّ إبراهيم عليه السلام، حيث أصبح لديه ذرّيّة. وقد صرّح القرآن بأنّه وُلِدَ له على كبر؛ كما في قوله -تعالى-: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾[1]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾[2]، ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[3].

والمراد بالابتلاء في الآية هو الامتحان والاختبار، وقد تعرّض النبيّ إبراهيم عليه السلام لجملة من الابتلاءات، ذكر القرآن الكريم بعضها، وهي:

(1) سورة هود، الآية 72.
(2) سورة إبراهيم، الآية 39.
(3) سورة الحجر، الآية 54.

1. مواجهة قومه من عبدة الأصنام، وتحطيم أصنامهم، وإلقاؤهم إيّاه في النار: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[1]، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾، ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾[2].

2. الهجرة والابتعاد عن الوطن، وذلك على مرحلتين، اضطرّ في إحداهما إلى إسكان زوجته وولده في الجزيرة: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3].

3. ابتلاؤه بذبحه ولَده إسماعيل عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[4].

وفي هذه الامتحانات كلّها وغيرها، أبدى إبراهيم عليه السلام تسليماً لله، وإخلاصاً منقطعاً؛ ما رفع له مكانته ومنزلته عند الله -تعالى-، فاستحقّ الإمامة. ويبدو أنّ الكلمات كانت أموراً أثبتت لياقته للإمامة، وإتمامهنّ هو النجاح في الوصول إلى الغاية بشكل تامّ وكامل، والله أعلم.

(1) سورة الأنبياء، الآيات 58-68.
(2) سورة الصافات، الآيات 93-97.
(3) سورة إبراهيم، الآية 37.
(4) سورة الصافات، الآيات 102-107.

فإتمام الكلمات هو بمعنى الإتيان بما أريد منه، وامتثال ما أمُر به.

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾:

الإمامة منزلة تجعل صاحبها مقتدىً يقتدي به الناس، ويأتمرون بأقواله وأفعاله ويتّبعونه، وهي منزلة بعد النبوّة؛ لأنّ إبراهيم عليه السلام كان نبيّاً عندما قال -تعالى- له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وهذا يقتضي أن تكون الإمامة مهمّةً تتجاوز تبليغ الرسالة بعد تلقّيها إلى مهمّة إقامة الدين والعدل؛ وبناءً عليه، فقد تجتمع النبوّة والإمامة، وقد تفترقان.

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾:

تدلّ على أنّ الإمامة لا يستحقّها إلّا المعصوم؛ لأنّ من مارس الظلم واقترفه في أوّل عمره، أو في آخره، أو في جميعه، ولو كان متقطّعاً، فهو من الظالمين.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله -عزّ وجلّ- اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً، وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً، وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً، وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يتّخذه إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال:** ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، **فمن عظمها في عين إبراهيم** ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، **لا يكون السفيه إمام التقيّ**»[1].

(1) الكليني، الشيخ محمّد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1363ش، ط5، ج1، ص175.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مبدأ الانحراف عند أهل الملل والنحل والدول يقوم على قاعدة فقهيّة مفادها: إمكانيّة تقديم المفضول على الفاضل في الإمامة، وإمكانيّة اقتداء التقيّ بالشقيّ، والمؤمن بالفاسق.

الآية (125)

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾:

تذكر الآية جانباً من إمامة إبراهيم عليه السلام، وهي قضيّة إقامة قواعد البيت، تمهيداً للحجّ والعبادة.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾:

المراد بالبيت في الآية هو البيت الحرام في مكّة المكرمة، قال -تعالى-: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[1]، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[2]، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[3].

الألف واللام في البيت للعهد. وإطلاق اسم البيت دون وصف آخر؛ لأنّه معهود، وفيه تعظيم. وقد استفاد بعضهم من وصفه بالمثابة والأمن أنّ المراد مكّة كلّها، بل الحرم كلّه، وهو خطأ؛ لأنّ حرمة مكّة وحرمة الحرم جاءتا لوقوع البيت فيهما، ولا يلزم من ذلك توسيع مفهوم البيت بحيث يشمل حرمه.

(1) سورة آل عمران، الآية 96.
(2) سورة المائدة، الآية 97.
(3) سورة الحج، الآية 26.

وجَعْل البيت مثابة معناه مرجعاً ومآباً للناس، يثوبون إليه؛ أي يعودون ويرجعون، فسّر ذلك بأنّه نتيجة التعلّق القلبيّ: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[1]، فيكرّرون زيارته، وبذلك يعمر بالعبادة، أو أنّه نتيجة فرض الحجّ الذي يلزم الناس باللجوء إليه، والطواف فيه، وكذلك الدعاء والصلاة.

﴿مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾:

إنّ الله -تعالى- لا يحدّه مكان، ولا يخلو منه مكان؛ لذا فهو يُعبَد في كلّ مكان، ولا تخفى عليه حال عبده إينما كان، فما فائدة جعل البيت مثابة للناس؟ وهل من علاقة بين العبادة والأمن؟

ويكمن الجواب في أنّ لجعل البيت مثابة للناس أكثر من ثمرة:

1. يتأثّر الإنسان عاطفيّاً وقلبيّاً في المواطن التي تذكّره بالله -تعالى-، فتخصيص مكان للعبادة يعين على حضور القلب، والتوجّه نحوه -تعالى- بشكل أكمل وأسهل وأعمق.
2. اجتماع الناس على عبادة الله -تعالى- يبعث القوّة في النفس، ويبعد الإنسان عن الاستيحاش، فينقذه من حالات الغفلة والضعف التي تصيبه. ولعلّه لأجل ذلك ندبت الشريعة إلى العبادات الجماعيّة، كصلاة الجماعة، والجمعة، والعيدين، والحجّ، والعمرة، واجتماع أربعين مؤمناً على الدعاء، وأمثال ذلك.
3. اجتماع الناس في مناسبات معيّنة، وفي بقاع محدّدة على أداء فريضة؛ من شأنه أن يحوّل العبادة من حالة فرديّة إلى ظاهرة

(1) سورة إبراهيم، الآية 37.

اجتماعيّة عامّة وواسعة؛ ما يساهم في نشر التوحيد وإرساء قواعده.

4. أمن البيت مرتبط بالأجواء المساعدة على اجتماع الناس والتقائهم، على الرغم من اختلاف ألوانهم وأصقاعهم؛ بحيث لا يخيف بعضهم بعضاً، ولا يرهَب بعضهم من بعضاً.
5. أمن البيت يرتبط بمعنى السلام الذي تختزنه عبادة الله -تعالى-، ويوحّد الناس في خطّ طاعته؛ لأنّ وقوفهم بين يديه ينسيهم الخلافات والنزاعات، والتي تقوم دائماً على الأنانيّات والشهوات وحبّ الدنيا.

﴿وَأَمْنًا﴾:

أمن البيت هو استجابة لدعاء النبيّ إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[1].

وقد تُرْجِمَ أمن البيت في الشريعة بأحكام عدّة؛ هي:

1. حرمة الأشهر الحرم التي هي أشهر الحجّ والعمرة، فيحرم فيها القتال، ولو كان بحقّ، إلّا للدفاع؛ فإنّه ردع لمن انتهك الحرمة.
2. حرمة حمل السلاح داخل البيت وفي الإحرام.
3. يأمن من دخل البيت، حتى لو كان مطلوباً بدم حتّى يخرج منه، إلّا أن يَقتُل فيه.
4. حرمة الصيد في الحرم ليتّسع الأمن لكلّ حيوان طليق، ما لم يكن مفترساً أو خطراً.

(1) سورة إبراهيم، الآية 35.

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾:

مقام إبراهيم عليه السلام هو الموضع الذي قام فيه عليه السلام عندما رفع قواعد الكعبة بعدما أمره الله -تعالى- ببنائها: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾[1]. وقواعد الكعبة هي صخرة ظهرت عليها مواضع قدَمَي إبراهيم عليه السلام، وكانت ملاصقة للكعبة بين الباب والركن العراقيّ، وقد رأى الخليفة الثاني نقلها إلى حدود المطاف على بعد 26 ذراعاً من مكانها السابق، لمّا رأى الناس يصلّون خلف المقام، ويزاحمون الطائفين.

وفي قصيدة أبي طالب عليه السلام بيت من الشعر يذكر فيه المقام، فيقول:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة

على قدميه حافياً غير ناعل[2]

وهذا المقام آية، كما عبّر القرآن الكريم: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾[3].

سُئِل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله -تعالى-: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾، قال: «**مقام إبراهيم، حيث قام على الحجر، فأثّرت فيه قدماه، والحجر الأسود، ومنزل إسماعيل**»[4].

(1) سورة البقرة، الآية 127.
(2) الحميريّ، ابن هشام، السيرة النبويّة، تحقيق وضبط وتعليق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة عليّ صبيح وأولاده، مطبعة المدنيّ، القاهرة، 1383هـ/ 1963م، لا. ط، ج1، ص177.
(3) سورة آل عمران، الآية 97.
(4) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج4، ص223.

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**وكان موضع المقام الذي وضعه إبراهيم عليه السلام عند جدار البيت، فلم يزل هناك حتّى حوّله أهل الجاهليّة إلى المكان الذي هو فيه اليوم، فلمّا فتح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مكّة ردّه إلى الموضع الذي وضعه إبراهيم عليه السلام فلم يزل هناك إلى أنْ وُلّي عمر بن الخطّاب، فسأل الناس: من منكم يعرف المكان الذي كان فيه المقام؟ فقال رجل: أنا قد كنت أخذت مقداره بِنسع (سَير ينسج عرضاً على هيئة أعنة النعال تشدّ به الرحال)، فهو عندي، فقال: ائتيني به، فأتاه به، فقاسه، ثم ردّه إلى ذلك المكان**»[1].

وحجر المقام في يومنا هذا ملبّس بالفضّة، لا يظهر الحجر. إلّا في موضع القدمين، وقد صنع له قاعدة وقبّة، وأحيط بالزجاج، لحفظه ليس إلّا.

واتّخاذ المقام مصلّى بأنْ يصلّى خلفه إلى جهة الكعبة. وقد فرضت الصلاة الواجبة في الطواف في هذا الموضع، وأمّا غيرها فلا يجب.

وقيل: إنّ مقام إبراهيم عليه السلام يشمل المواضع التي قام فيها كلّها، فيدخل فيها البيت كلّه، ومكّة، ومِنَى، وعرفات، ولكنّ السياق القرآنيّ لا يساعد على ذلك، وكذا روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج4، ص223.

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾:

يحتمل تطهير البيت وجوهاً، هي:

1. إزالة النجاسات والنفايات.
2. إزالة الأصنام وما يُعبد من دون الله.
3. تطهيره من الشرك بإبعاد أهل الشرك عنه.

وربّما كان ذلك كلّه داخلاً في التطهير؛ لأنّ المقصود تحضيره وإعداده للصلاة فيه والعبادة، حيث قال -تعالى-: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾. والطائفون هم الذين يطوفون بالبيت في نسك أو في غير نسك. والعاكفون هم القائمون في المسجد؛ إمّا بنيّة الاعتكاف، وهو العبادة المعروفة، وإمّا لغير ذلك من أنواع العبادة؛ وأدناها النظر إلى الكعبة والتسبيح. والركّع السجود، هم المصلّون الذين يقومون ويقعدون ويركعون ويسجدون في صلاتهم.

الآية (126)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

الآية تذكير بدعوة إبراهيم عليه السلام واستجابتها من قبله -تعالى-، تلك الدعوة التي منّ الله -تعالى- بها على أهل البلد، واستمرّوا ينعمون بها حتّى زماننا هذا.

وقد دعا إبراهيم عليه السلام ربّه طالباً أمرين مهمّين لا تستقيم

الحياة إلّا بهما، ولا يستقرّ الإنسان في موضع إلّا بهما؛ ما يجعلهما ضروريّين لتحقيق الهدف المقصود لإبراهيم عليه السلام من وراء إسكان الذرّيّة، وهما:

1. الأمن: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾.
2. الرزق: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾:

المراد بالبلد المذكور في الآية هو مكّة المكرمة، وهي الموضع الذي أسكن إبراهيم عليه السلام فيه من ذرّيّته؛ أي إسماعيل عليه السلام، ودعا بهذا الدعاء كما ورد في قوله -تعالى-: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1]، ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾[2]، ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

وتقدّم ذِكْر العلاقة بين الأمن والعبادة وإقامة المناسك التي شرّعت في تلك البقعة المباركة.

وقد تعرّض المفسّرون لتسمية البقعة بالبلد، مع أنّه حين إسكان الذرّيّة لم تكن قد أصبحت بلداً، بل كانت أرضاً خالية، وقيل: إنّ الفرق يكمن في إيراد البلد معرّفاً في سورة إبراهيم، ومنكّراً في سورة البقرة، ففي آية البقرة تضمّنت الدعاء بصيرورة البقعة

(1) سورة إبراهيم، الآية 37.
(2) السورة نفسها، الآية 35.
(3) سورة القصص، الآية 57.

بلداً آمناً، بينما الآية في سورة إبراهيم تضمّنت الدعاء بالأمن للبلد بعد أن صار بلداً، وهي تفرقة فيها تكلّف؛ لأنّ سياق الآيات في الموضعَين يفيد الحديث عن قصّة واحدة ودعاء واحد، فالصحيح أنّ المقام يحتمل وجهين، هما:

1. إنّ إبراهيم كان يتحدّث بواقع المستقبل، وهو يرى أنّه سيصير بلداً.
2. إنّ البلد لا يتوقّف على توسّع العمران، فيكفي فيه إسكان إبراهيم لأهله.

وربّما يتساءل بعض عن الوقت الذي جُعل الأمن فيه للبيت، ففي بعض الروايات أنّ حرمة البيت قديمة قِدم البيت منذ آدم عليه السلام[1]. وقد ورد وصف البيت بالحرام في كلام الإمام عليّ عليه السلام، كما في الخطبة القاصعة[2]، ووصفه إبراهيم عليه السلام بذلك، كما في قوله -تعالى-: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[3]؛ فهو محرّم قبل الإسكان وقبل الدعاء، فلماذا دعا إبراهيم ربّه بقوله: ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾، فهل هو من باب التأكيد، أو إدامة الأمن، أو من باب طلب تشريعه على لسان الأنبياء اللاحقين عليهم السلام؟

(1) انظر: الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، ط1، ج1، ص385.

(2) الشريف الرضيّ، محمّد الرضيّ بن الحسن، نهج البلاغة (خطب الإمام علي عليه السلام)، شرح: الشيخ محمّد عبده، دار الذخائر، إيران - قم، 1412هـ - 1370ش، ط1، ج2، الخطبة 192، ص146-147.

(3) سورة إبراهيم، الآية 37.

وفي روايات أخرى نسبة التحريم إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما في حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إنّي حرّمت المدينة؛ كما حرّم إبراهيم مكّة**»[1]. ويمكن أن يُقال: إنّ الدعاء تضمّن طلب الأمن، والتحريم هو وسيلة تشريعيّة لتحقيق الأمن، فيكون ما طلبه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدعاء هو تحقيق الأمن والالتزام بمقتضى الحرمة، وهو يحتاج إلى عناية خاصّة ولطف آخر يتجاوز عالم التشريع إلى عالم التكوين، كما فعل -تعالى- في قصّة أصحاب الفيل، وربّما غيرهم ممّن أراد بالبيت سوءًا.

نعم، قد يقال إنّ البيت تعرّض للرمي بالمنجنيق من قبل الحجّاج بن يوسف الثقفيّ، ولهجوم السلطات المحلّيّة في قصّة جهيمان، ومجزرة كبيرة بالحجّاج الإيرانيّين، وربّما غير ذلك...

وقيل في جواب الإشكال الأوّل: إنّ أصحاب الفيل أرادوا أصل البيت، والحجّاج بن يوسف الثقفيّ لم يرد ذلك، ولكنّه تفريق بين المقامين في عوامل التدخّل الإلهيّ، وليس في مجال الأمن الذي هو في المقامين سواء!

﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

تكرّر الدعاء بالرزق من الثمرات في سورة إبراهيم أكثر من مرّة. والمقصود بالثمرات ما تنتجه المزروعات من الأشجار والنباتات الموسميّة والدائمة، والمراد ما يحتاج إليه الإنسان لعيشه واستمرار حياته ممّا يتغذّى به، ويغذّي منه أنعامه ودوابه.

(1) أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، لا. ت، لا. ط، ج4، ص402.

وليس هذا الدعاء من باب الرغبة في التوسعة، ولا الحبّ للدنيا وطيّباتها ولذائذها، وإنْ كان طلبها مباحاً، لكنّه عليه السلام طلب ما يُعدّ من مقوّمات البقاء والاستمرار في هذا المكان، ولكي لا يدفعهم طلب الرزق إلى ترك البيت وهجرانه، بل ربّما يكون له علاقة بقصد الناس له ورغبتهم في الحجّ إليه.

وكلا الأمرين: الأمن، والرزق يتوقّف عليهما الاستقرار والبقاء من جهة، وحجّ البيت من جهة أخرى.

وقد ورد تفسير الثمرات بثمرات القلوب. ولعلّ ذلك من باب الإشارة إلى أنّ المودّة أهمّ من الطعام؛ لتحقيق طيب العيش، والانسجام، وحياة الجماعة، وهو من باب التوسّع، فلا ينفي الأوّل.

ولم يطلب إبراهيم عليه السلام ما طلبه من الله -تعالى- لخصوص ذرّيّته، بل طلب ذلك لأهل البلد، وهم كلّ من أقام أو يقيم في المستقبل. وسبب هذه التوسعة أنّ الغاية والغرض هو إقامة الصلاة؛ وهذا ما أراد إبراهيم عليه السلام تحقيقه للناس كلّهم، فلا خصوصيّة للأبناء.

ومن جهة أخرى، فقد خصّص دعاءه بمن آمن منهم بالله واليوم الآخر. ولا شكّ في أنّ الآية السابقة: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، توحي بوجود ظالم في الذرّيّة، فكيف بأهل البلد من الذرّيّة وغيرها! ولم يشأ إبراهيم عليه السلام أن يطلب لهم الرزق، فاستثناهم بمفهوم التخصيص الذي عبّر عنه بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، وذكره متأخّراً كأنّه استدراك لإظهار العناية الخاصّة بهم.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

وهو يتضمّن في طيّاته الإخبار بالاستجابة لدعاء إبراهيم مع توسعة بالأرزاق والثمرات تشمل غير المؤمنين، فهو -تعالى- واسع الرحمة يعطي عباده من آمن منهم ومَن لم يؤمن، لكنّ الآية أشارت بوضوح إلى أنّ الدنيا متاع قليل مهما نال الإنسان منها، وهو -تعالى- يمتّع الكافرين في الدنيا ليقيم الحجّة عليهم، ويمنحهم الفرصة تلو الفرصة لعلّهم يتذكّرون ويشكرون؛ وهو -تعالى- لا يعجزه كفرهم ولا إعراضهم. والدنيا مهما طالت وعظمت، فهي أيّام قليلة يعيشونها، ثمّ يأتيهم الموت الذي لا بدّ منه؛ فلا ملجأ لهم ولا مهرب: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[1]، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ﴾:

هذه هي العاقبة التي تنتظر من كفر؛ وفي ذلك دفع توهّمٍ؛ من أنّه إذا أنعم الله على الإنسان ووسّع عليه رزقه، فلا يتوهّمنّ أنّه راضٍ عنه، وإنّما ذلك من باب الإملاء، وإتمام الحجّة ليس إلّا، وليتمّ به الامتحان: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[3]؛ وهي عاقبة لا يُحسد عليها، ومصير لا يحبّ أحد أن يصير إليه، فهو بئس المصير.

(1) سورة النساء، الآية 77.
(2) سورة التوبة، الآية 38.
(3) سورة آل عمران، الآية 178.

الآية (127)

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

لا شكّ في قِدَم البيت، وأسبقيّته على إبراهيم عليه السلام، كما صرّح بذلك القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾[1]، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾[2].

فهل يُطلق البيت على المكان دون بناء يقوم عليه؟ الظاهر أن ذلك ليس هو مقتضى اللغة والمتبادر عرفاً، فهو يدلّ على أنّ البناء كان موجوداً؛ وعليه، فإنّ إبراهيم عليه السلام أعاد بناءه على القواعد التي كانت باقية منه.

ومن مؤيّدات قِدم البيت كلامٌ للإمام عليّ عليه السلام في خطبته القاصعة: «**أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللَّه سُبْحَانَه اخْتَبَرَ، الأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صلى الله عليه وآله وسلم إِلَى الآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، بِأَحْجَارٍ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ، فَجَعَلَهَا بَيْتَه الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلَه لِلنَّاسِ قِيَاماً، ثُمَّ وَضَعَه بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ حَجَراً، وأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً... ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عليه السلام وَوَلَدَه أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَه - فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ وغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ...**»[3].

(1) سورة آل عمران، الآية 96.
(2) سورة إبراهيم، الآية 37.
(3) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، ج2، الخطبة 192، ص146-147.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾:

الدعاء الأوّل لإبراهيم عليه السلام بتقبّل رفع القواعد؛ باعتبارها من القربات المهمّة والمؤسِّسة لعمارة البيت الحرام.

الآية (128)

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تستكمل هذه الآية بيان أدعية إبراهيم عليه السلام أثناء رفعه قواعدَ البيت؛ ودعاؤه الثاني: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾؛ بجعله وولده وذرّيّته مسلمين لله -تعالى-؛ إذ مهما بلغ الإنسان في درجات الإيمان والتقوى، فإنّه لا يأمن على نفسه ولا على ذرّيّته، ما لم يوفّقه الله -تعالى- ويعينه ويهديه، فلا غنى عن الاستعانة واللجوء إليه.

وذُكِر في إفادة ﴿مِن﴾ وجهان؛ هما: التبعيض أو التجريد، فعلى الأوّل لا يشمل الدعاءُ الذرّيّة كلّها، وعلى الثاني يكون الدعاء للذرّيّة أنْ يجعلها أمّة مسلمة.

وفي الرواية أنّ الأمّة المسلمة بنو هاشم[1]، ولعلّه من باب التطبيق وذِكْرِ مصداق استجابة الدعوة.

(1) انظر: العيّاشيّ، تفسير العيّاشيّ، مصدر سابق، ج1، ص60-61.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾:

وهو الدعاء الثالث لإبراهيم عليه السلام، ويتضمّن طلب التشريع وبيان المناسك؛ أي تشريع مناسك الحجّ؛ وهو من تتمّة أو من نتائج الأمر الإلهيّ لهما ببناء البيت؛ لأجل الحجّ ودعوة الناس إليه. وربّما كان المراد أرنا المناسك قائمة، وهي من وسائل التعليم بالمعاينة، أو من باب التوفيق لأدائها لتُرى قائمة.

والمناسك هي الأعمال والممارسات العباديّة؛ لأنّ النسك هو التعبّد، فشرائع الحجّ مناسك، والمواقف مناسك.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾:

وهو الدعاء الرابع لإبراهيم عليه السلام بالتوبة، وهو لا ينافي العصمة؛ لأنّ التوبة رجوع إلى الله، وهو يتحقّق بالعودة بعد الابتعاد نتيجة الذنب، كما يتحقّق بالرجوع والإنابة في كلّ مرّة يتوجّه فيها العبد إلى ربّه. ومن هذا الباب يتكرّر طلب التوبة كثيراً على ألسنة المعصومين عليهم السلام. ويكفي في توبة العبد اتّهام نفسه بالتقصير مع الله، والمعصوم لا يُخرج نفسه من التقصير.

والتعبير بالجمع يشمل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وربّما الذرّيّة كلّها.

والتوبة توبتان

توبة من العبد إلى الله، وتوبة من الله على العبد. والدعاء يتضمّن الثاني الذي هو عودة من الباري -عزّ وجلّ- على عبده؛ بالرحمة، واللطف، والمغفرة.

الآية (129)

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

لأنّ تماميّة الغاية التي من أجلها أقام إبراهيم عليه السلام ذرّيّته في هذا الوادي لا تستغني عن الدليل والمرشد والهادي والقائد؛ لذا أتمّ دعاءه الخامس بالسؤال من الله -تعالى- أنْ يبعث فيهم رسولاً منهم؛ لأنّه أقرب إلى قبولهم، حتّى يهتدوا به إلى ما يحبّون من طاعة الله، حيث لا غنى لهم عن الشريعة والمعرفة والإرشاد. وقد ورد في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا دعوة إبراهيم»[1]. وسُئِل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما كان بدو أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمّي أنّه خرج منها شيء أضاءت منه قصور الشام»[2].

ومن وظائف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الدعاء الأخير لإبراهيم عليه السلام:

1. ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾.
2. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾.
3. ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾.

(1) ابن شهر آشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية، العراق - النجف الأشرف، 1376هـ - 1956م، لا. ط، ج1، ص199؛ ج2، ص24.

(2) الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1403هـ - 1362ش، لا. ط، ص177.

الآية (130)

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الاستفهام إنكاريّ يفيد النفي، ومفاده: وهل يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه؟

﴿يَرۡغَبُ﴾:

إذا تعدّى بـ(في) أو بـ(الباء) أفاد المحبّة، وأمّا إذا تعدّى بـ(عن) أفاد الإعراض والترك، وهو المقصود في الآية.

﴿مِّلَّةِ﴾:

الملّة هي الطريقة الواضحة المتّبَعة، يقال طريق مُمَلّ: قد سُلك حتّى صار مُعَلَّماً.

﴿سَفِهَ﴾:

السفه هو خفّة الحِلم، أو نقيضه، وقيل: هو الجهل، لكنّ المقصود بالجهل ليس ما يقابل العلم، بل ما يُوصف به الفعل المجانب للصواب، كما ورد في الدعاء: «**وكلّ جهل عملته**»[1]. والسفه خفّة في البدن، وثوب سفيه؛ أي رديء النسج. واستعمل السفه في خفّة النفس؛ لنقصان العقل، وفي الأمور الدنيويّة والآخرويّة، فقيل: سفه نفسَه، وأصله سفيهٌ نفسُه، فصرف عنه الفعل نحو بطر معيشتَه.

(1) الطوسي، الشيخ محمّد بن الحسن، مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد، مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت، 1411هـ.ق/ 1991م، ط1، ص849.

و﴿سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾؛ أي حملها على السفه، وأوقعها في الجهل، وما لا ينبغي للعاقل الحكيم فعله. وقيل: ﴿سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾؛ أي أهلكها وأوبقها، وقيل: معناه سفه في نفسه، وحذف حرف الجرّ ونصب ما بعده؛ أي صار سفيهاً، ووضع نفسه موضع السفه.

فالمعنى العامّ: أنّه لا يعرض عن دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وسنّته إلّا الذي أوقعه سفههُ وسوءُ اختياره في ذلك، وإلّا فإنّ العاقل الحكيم لن يخفى عليه صواب الملّة ووضوحها وحقيقتها.

﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

إخبار عن اصطفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وعاقبته، وهو بمثابة دليل على ما تقدّم من استنكار الإعراض عن ملّته. وفي الآية إبراز لجانبين:

1. الصلاح في الدنيا، الذي يكشف عن الاصطفاء، وهو اختيار الصفوة الخالصة. والمقصود -هنا- اختياره من بين الخلق؛ لما لديه من استعداد وأهليّة وصلاح تمكّنه من حمل الأمانة وأداء الرسالة والمسؤوليّة التي توّجت بحمل الأمانة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾.
2. الصلاح في الآخرة؛ بمعنى صلاح العاقبة، وما يترتّب على ذلك من منازل ومكارم. ولا شكّ في أنّ ثمّة علاقة وثيقة بين الاثنين، فالأولى سبب للثانية، والثانية نتيجة للأولى.

الآية (131)

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

تبيّن هذه الآية الثانية علّة الاصطفاء، وهي التسليم لأمر الله؛ لأنّ من أسلم نفسه لربّ العالمين، فقد قطعها عمّن سواه من الأنداد، حتّى النفس.

الآية (132)

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾:

في هذه الآية انتقال إلى مستوى آخر من الاهتمام بالتسليم لله بعد تحويلها إلى وصيّة: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾.

مراتب الإسلام

1. **المرتبة الأولى:** القبول الظاهريّ القوليّ؛ بإعلان الشهادتين باللسان، وإنْ لم يوافق القلب على ذلك: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[1].
   ويترتّب على هذا الإسلام آثار دنيويّة اجتماعيّة لا غير.
2. **المرتبة الثانية:** التسليم والانقياد القلبيّ.
3. **المرتبة الثالثة:** التسليم والانقياد العمليّ؛ عن طريق الالتزام بالأوامر والنواهي، والتخلّق بأخلاق الإسلام.

(1) سورة الحجرات، الآية 14.

4. **المرتبة الرابعة:** حالة التعلّق التامّ والرضى بكلّ حال؛ وهي حالة الفناء في المولى، بحيث لا يرى الإنسان لنفسه شيئاً، ولا أمراً، ولا نهياً، ولا همّاً، إلّا ما يريده الله -تعالى- دون أيّ اعتراض. وهذه المرتبة هي المقصودة في الآية الأخيرة.

الآية (133)

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾:

ذَكر القرآن من القصص المتعلّقة بإبراهيم عليه السلام وأولاده ما يُظهر تسليمهم لله -تعالى-، ويبطل دعوى اليهود فيما يرتبط بهم عليهم السلام من أنّهم كانوا يهوداً. وسيأتي بيان الآيات الصريحة الداحضة لهذه الدعوى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾[1].

وتبيّن هذه الآية وحدة الوصيّة بين الأنبياء عليهم السلام كلّهم، وتمحورها حول توحيد العبادة وإخلاصها له -تعالى-.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾:

ذُكِر في المراد من ﴿أَمْ﴾ وجوه، هي:

1. إنّها منقطعة وليست متّصلة، فالمتّصلة تأتي للتخيير بين أمرين،

(1) سورة البقرة، الآية 140.

وهي في هذه الآية غير مسبوقة، مثل: قوله -تعالى- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ﴾[1]؛ فمعناها النفي، وكأنّه قال ما كنتم شهداء؛ وذلك للتقرير. والمخاطب في الآية هم أهل الكتاب الذين نسبوا إلى أنبياء الله -تعالى- نِحَلاً لا تتوافق ولا تتطابق مع الحنيفيّة، وقيل: للمؤمنين.

2. إنّها متّصلة، وقبلها محذوف، وتقدير الكلام: أتدّعون على الأنبياء عليهم السلام ما لم ينزل به سلطان، أم كنتم شهداء! وعلى أيّ حال، فالآية ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، تنفي حضور المخاطَبين عند احتضار يعقوب عليه السلام، وتنفي مشاهدتهم له عند ذلك.

وتحكي هذه الآية ما حدث عندما حضر يعقوب عليه السلام الموت؛ أي عند احتضار يعقوب عليه السلام، وهي حالة الإنسان عندما تدنو منيّته، وتظهر عليه آثار الاقتراب من الموت، كانعدام القدرة، واضطراب الأجهزة البدنيّة، وقد يعاني الإنسان في حال الاحتضار من اضطراب نفسيّ منشؤه الخوف من الموت وما بعد الموت، والرهبة من المصير المجهول؛ وذلك إذا لم يكن من ذوي النفوس المطمئنّة والمستعدّة للقاء الله، وممّن قدّم العمل الصالح.

ولذلك، يتمّ تسكين روع المحتضر عن طريق تذكيره بما بعد الموت، وبرحمة الله -تعالى- الواسعة، وقد وردت نصوص عدّة في هذا الصدد، منها:

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**جاء رجل إلى أبي ذرّ، فقال: يا أبا ذرّ، ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنّكم عمّرتم الدنيا**

(1) سورة يونس، الآية 38.

وأخربتم الآخرة، فتكرهون أن تنقلوا من عمران إلى خراب»[1].

وروي عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «قيل لعليّ بن الحسين عليه السلام: ما الموت؟ قال: للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة، وفكّ قيود وأغلال ثقيلة، والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح وأوطأ المراكب، وآنس المنازل؛ وللكافر كخلع ثياب فاخرة، والنقل عن منازل أنيسة، والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها، وأوحش المنازل وأعظم العذاب»[2].

وقد ورد أنّ الملائكة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام يحضرون عند احتضار المؤمن الصالح، فيخفّفون عنه، ويبشّرونه بما ينتظره، فتطيب نفسه، وتهدأ، ويسهل عليه الموت.

ومن الآداب في حال الاحتضار

1. نقل المحتضر إلى مصلّاه الذي اعتاد أن يصلّي فيه، فالصلاة تشفع له.
2. توجيه المحتضر إلى جهة القبلة بوضع قدميه إليها، بحيث إذا جلس كان مستقبلاً لها.
3. تلقينه الشهادتين، وأصول العقيدة الحقّة.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص485.
(2) الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، إيران - قم المقدّسة، 1379هـ.ق/ 1338هـ.ش، لا. ط، ص289.

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ﴾:

وقد تعلّقت وصيّة يعقوب عليه السلام لبنيه بأهمّ ما يعنيه، وما يودّ توريثه إليهم، وهو التوحيد، فأراد الاطمئنان إلى ذلك، وهذه سيرة الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام. وقد ورد أنّ الإمام الصادق عليه السلام جمع ولده وأهل بيته في آخر لحظات حياته، وقال لهم: «**إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفّاً بالصلاة**»[1]. وتلك هي وصيّة الإمام عليّ لولديه الحسنين عليهما السلام ولأهل بيته.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾:

وفي الآية نسبة أبناء يعقوب عليه السلام تارةً إلى الآباء وتارةً إليه. وهم؛ أي أبناء يعقوب عليه السلام، عادوا فأكّدوا على وحدانيّته بعد تفصيله؛ ليشيروا إلى أنّه معبودهم لا سواه، فكأنّهم أرادوا أن يقرّوا عين يعقوب عليه السلام بأنّهم لن يحيدوا عن نهج إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب عليهم السلام في عبادة الله؛ تأكيداً على وحدة المنهج والدين.

وقد أطلقوا لفظ الأب على إسماعيل عليه السلام، مع أنّه عمّهم؛ وذلك لأنّ العرب يُطلقون اسم الأب على الوالد والأجداد والأعمام، كما يطلقون اسم الخال والأخوال على كلّ من يتقرّب من جهة الأمّ، وإنْ لم يكن خالاً على الحقيقة.

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ، ط1، ص572.

وهذه الآية حجّة على أنّ استعمال اسم الأب في آذر لا يدلّ على والديّته لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولعلّ التنصيص عليه باسم العلم يساعد على ذلك.

﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾:

العبادة تعني الطاعة التامّة مع التعظيم، فهي تشمل ما جاءت به الرسل كلّه، وتستلزم الإقرار والاعتراف بالألوهيّة والربوبيّة؛ لأنّهما مبعث الطاعة والعبادة. وقد تقدّم بيان معنى العبادة.

الآية (134)

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾:

الأمّة تعني الجماعة على خطّ واحد، بحيث يجمعهم مقصد واحد.

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن على معانٍ عدّة؛ هي:

1. الأمّة بمعنى الحين: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[1]، أي بعد مدّة أو بعد حين.
2. الأمّة بمعنى القدوة والإمام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[2].
3. الأمّة بمعنى الجماعة أهل الملّة الواحدة، كما يقال: أمّة محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ وأصله من القصد، من الجذر أمَّ يؤمُّ، ومنه الإمام؛ لأنّه يؤتمّ به، والمأمومون أمّة؛ لأنّهم على إمام واحد،

(1) سورة يوسف، الآية 45.
(2) سورة النحل، الآية 120.

ويقصدون ملّة واحدة تجمعهم على ذلك المقصد، ومنه هذه الآية.

خلت: مضت، وخلا منها الزمان والمكان.

والآية في مقام تحديد المسؤوليّة، فكلّ جماعة مسؤولة عن أعمالها، ولها نتائج تلك الأعمال، كما أنّ عليها أوزارها: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾؛ إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[2]، وهي تدلّ على أنّه لا يُؤخذ أحد بذنب أحد، ولا يثاب أحد بعمل أحد.

والسياق جاء ليقطع نزاعاً دائراً بين اليهود والمسلمين حول تبنّي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام، وادّعاء الانتماء إليه، فالقرآن ردع اليهود عن وصفه باليهوديّة، وأكّد حنيفيّته وإسلامه وإسلام الأنبياء كلّهم عليهم السلام.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشفاعة -بالمعنى الدقيق لها- لا تنافي المسؤوليّة عن الأعمال، ولا تلغي قاعدة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ لأنّها تأتي تماماً في سياق نتائج الأعمال وما يكسبه الإنسان، وتختلف تماماً عن شفاعات الدنيا ووساطاتها التي تلامس الظلم في كثير من الأحيان، بينما تأتي شفاعة يوم القيامة في سياق الإمامة ونتائج الائتمام والاقتداء والاهتداء، ولا تخرج عن إطار الميزان.

(1) سورة الأنعام، الآية 164.
(2) سورة غافر، الآية 17.

كما أنّ المتسبّبين بالانحراف والمؤسّسين لمنهج الضلال يتحمّلون وزر أعمال المخدوعين والمضلَّلين، وإنْ كانوا خُدِعوا بإرادتهم، دون أن ينقص من وزر العامل شيء.

الآية (135)

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

تقدّم في بعض الآيات ادّعاء اليهود والنصارى انحصار طريق الهدى بهم: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

والترديد في هذه الآية؛ كالترديد في الآية (111) من السورة نفسها، حيث إنّه ليس بمعنى اعتراف اليهود بالنصارى وبالعكس، وإنّما هو باعتبار ادّعاء كلّ فريق منهم انحصار طريق الهدى في ملّته، ومنشأ ذلك هو العصبيّة وليس الدليل والبرهان.

وقد نفت الآية تلك الدعوى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾، وهو ردّ عليهم، وإضراب عن زعمهم، وإثبات كون الهداية باتّباع ملّة إبراهيم حنيفاً. وقد وصفها الله بالحنيفيّة؛ لأنّها الدعوة المستقيمة التي لا انحراف ولا شرك فيها.

وفي وصف إبراهيم بالحنيفيّة ونفي الشرك عنه إشارة إلى عدم كون اليهوديّة والنصرانيّة كذلك، وهذا يثبت احتواء الملّتين

(1) سورة البقرة، الآية 111.

على الانحراف والشرك؛ الأمر الذي يبعدهما عن طريق الهدى المزعوم.

وربّما كانت العودة إلى ملّة إبراهيم، على الرغم من أنّ ملّة محمّد ﷺ هي -أيضاً- ملّة التوحيد والإخلاص والحنيفيّة، ناشئة من رفضهم للدين الجديد، بحجّة التمسّك بالأسبق، وأنّه الثابت، بينما اللاحق مشكوك، ففيه إقامة الحجّة عليهم بأنّ الرجوع إلى الأقدم والأسبق يفترض العودة إلى ملّة إبراهيم عليه السلام، وهي قبل ملّتَي موسى وعيسى عليهما السلام. وخلاصة الحجّة: إنْ كان الأمر بالدليل، فالإسلام موافق للدليل، وإنْ كان بغير ذلك، فالمشترك والأسبق.

الآية (136)

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾:

الإيمان الصحيح هو الإيمان بأنبيائه عليهم السلام بما يعنيه من تفاصيل وحدود؛ من التوحيد، ونفي الشرك بأبعاده وأشكاله كلّها، إلى وصف الباري -عزّ وجلّ- بما يستحقّه من صفات، وصولاً إلى الإيمان بأنبيائه المرسلين، وما أنزله عليهم من كتب وشرائع.

وهذه الآية تثبت وحدة الدين: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾؛ أي وحدة مبادئه وأصوله؛ لأنّه إذا كان يحكي الحقيقة، فالحقيقة لا تتغيّر من زمان إلى زمان، ومن رسول إلى رسول. وما يتغيّر من

رسول إلى رسول هو بعض أحكام الشرائع العباديّة منها، والتي تتبع مصالح متغيّرة، وهي قابلة للنسخ والتغيير، ووجوب العمل بالمتأخّر منها لا ينفي وجوب الإيمان بما سبق؛ ولذا جاء الأمر بالإيمان بذلك كلّه:

1. ﴿بِٱللَّهِ﴾.
2. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ أي إلى المسلمين ممّا جاء على لسان محمّد ﷺ.
3. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، وكلّهم كانوا قبل موسى وعيسى عليهما السلام؛ أي قبل نشوء دين اليهوديّة والنصرانيّة التي ينتمون إليها، ويزعمون انحصار الهداية بها.
4. ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ اللذين يزعمون الانتماء إليهما، وينسبون إليهما ما هم عليه، على الرغم من تحريفه وتغييره.
5. ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، ختم بالتعميم الذي يشمل الإيمان بكلّ نبيّ مرسل.

فليس بالإمكان تجزئة الإيمان بالأنبياء عليهم السلام؛ لأنّ الرسل مبعوثون من ربّ واحد وإله واحد، فالإيمان بأحدهم لا يختلف عن الإيمان بالآخر.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾:

وهذا لا يعني وجوب العمل بما جاؤوا به كلّه، فلا ملازمة بين الإيمان والعمل، إلّا إذا كان النبيّ هو صاحب الرسالة الناجزة غير المنسوخة، فالنسخ لا يلغي أصل الرسالة وصحّتها، بل يلغي فعليّة لزوم العمل بها، ولا يمنع ذلك من الإيمان بالصدق والصحّة.

والعمل بالمتأخّر المبني على دليل النسخ لا يثبت التفرقة بالإيمان والتصديق.

والأسباط: جمع سبط، وهم الجماعة، والمقصود بهم القبائل المتفرّعة من أبناء يعقوب، وعددهم 12 سبطاً. والمراد: الأنبياء عليهم السلام المبعوثون في كلّ سبط من الأسباط؛ لأنّ أبناء يعقوب عليه السلام، إخوة يوسف عليه السلام، لم يكونوا أنبياء.

الآية (137)

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

هذا النوع من الإيمان هو طريق الهداية: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾. والشقاق: هو النزاع والمفارقة، ولعلّ المراد به المخاصمة العدائيّة؛ وذلك بقرينة الوعد الإلهيّ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾.

الآية (138)

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾:

صبغة الله: هذا الإيمان يلوّن الإنسان بلون من العقيدة بحيث يميّزه من غيره، ويظهر عليه في مجالات حياته كلّها. وهي صبغة الله باعتبارها فطرة الله التي فطر الناس عليها. وقد عقّب كلامه بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾؛ لأنّ العبادة متفرّعة من الإيمان، والعبادة هي التي تصبغ الإنسان.

الآية (139)

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾:

يظهر من هذه الآية أنّ اليهود ادّعوا أموراً أنكرها عليهم القرآن الكريم، وهي:

1. ادّعاؤهم أنّهم أبناء الله وأحباؤه، وبالتالي تكون لهم خصوصيّة دون غيرهم في نسبّة الربّ إليهم.
2. ادّعاؤهم أنّه لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً، وهي دعوى تترتّب على السابقة، وتقتضي أن يكون الدخول على أساس الحظوة، وليس على أساس العمل.

وقد ردّ القرآن الكريم عليهم بـ:

1. عدم اختصاص الربوبيّة بهم: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾.
2. التساوي في تحمّل المسؤولية أمام الله -تعالى-: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، وعدم تحمّل أحد وزر غيره.
3. التأسيس لقاعدة مفادها: أنّ الحظوة والمنزلة عند الله -تعالى- إنّما هما بالإخلاص والتسليم له، وليس لأمر آخر: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾.

الآية (140)

﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

استكمال لبيان حجج اليهود، حيث ادّعوا انحصار النبوّة فيهم؛ ولذلك استنكروا أن يبعث نبيّ من غيرهم، ودفعهم ذلك إلى الكفر، وهو نوع من التعصّب الذي لا أساس له.

وقد ردّ القرآن الكريم عليهم بـ:

1. عدم انحصار النبوّة فيهم، وعدم استحالة أن يبعث الله أنبياء ليسوا بيهود ولا نصارى، فلم يكن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب عليهم السلام، والأسباط هوداً ولا نصارى، وكانوا أنبياء هداة.
2. إذا زعمتم أنّهم كانوا هوداً أو نصارى، فلستم أعلم من الله -تعالى- الذي بعثهم، والذي لا يخفى عليه خافية. كيف لا، وقد أنزلت التوراة من بعدهم، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1]!

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾:

لا بدّ من أن تكون الشهادة مرتبطة بمقام المحاججة، ومتعلّقة بالنبوّة، وقد ذُكِر فيها وجوه عدّة، منها:

1. ما يرتبط بأخبار عيسى وموسى عليهما السلام عن نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم،

(1) سورة آل عمران، الآية 65.

والتي حاولوا إخفاءها: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾[1].

2. ما يرتبط بإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب عليهم السلام، وأنّهم ليسوا يهوداً.

ظلم كتمان الشهادة

قال -تعالى-: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾[2].

وقال -تعالى-: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾[3].

وروي عن الإمام أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «**وإنْ سئلت عن الشهادة فاشهد بها، وهو قول الله -عزّ وجلّ-:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، **وقال لنا أيضاً:** ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، في حديث المناهي، أنّه نهى عن كتمان الشهادة، فقال: «**من كتمها أطعمه الله لحمه على رؤوس الخلائق، وهو قول الله -عزّ وجلّ-:** ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾»[5].

(1) سورة البقرة، الآية 76.
(2) سورة الطلاق، الآية 2.
(3) سورة البقرة، الآية 282.
(4) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص315.
(5) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص514.

الآية (141)

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾:

الآية في مورد تحديد المسؤوليّة، فكلّ جماعة مسؤولة عن أعمالها، ولها نتائج تلك الأعمال، كما أنّ عليها أوزارها. وقد تقدّم تفسيرها.

الآية (142)

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

قيل: المراد بهم اليهود والمشركون من العرب، ولذلك عبّر عنهم بالناس. وإنّما سفّههم؛ لعدم استقامة فطرتهم، وفساد رأيهم في أمر التشريع. والسفاهة: عدم استقامة العقل، وتزلزل الرأي[1].

ويُطلق السفيه في الاستعمال العرفيّ على كلّ من يتصرّف تصرفاً مضرّاً بنفسه أو بماله بنحو متكرّر، بحيث يكون تصرّفه على خلاف ما يراه العقلاء من المصلحة؛ ولا يرى تصرّفه خطأً. والسفيه يُحجر عليه في الإسلام، فيُمنع من التصرّف في ماله أو في ولده، قال -تعالى-: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[2]، ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾[3]، ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا ۖ﴾[4].

---

(1) انظر: الطباطبائي، العلامة السيد محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1417هـ، ط5، ج1، ص318.

(2) سورة النساء، الآية 5.

(3) سورة البقرة، الآية 282.

(4) سورة الأعراف، الآية 155.

وانطباق عنوان السفهاء على اليهود واضح؛ لكونهم تعاملوا مع استقبال الرسول ﷺ المسجدَ الأقصى في صلاته ثمّ عدوله عن تلك القبلة، بطريقة تدلّ على اضطراب رؤيتهم وسوء فهمهم لحقيقة الاستقبال، ولحقيقة النسخ والتغيير في الشريعة.

وأمّا انطباقه على مشركي العرب؛ فلأنّهم ضلّوا عن الحقّ، وتمسّكوا بمقولات اليهود، ولم يتعبوا أنفسهم بإعمال النظر وفهم الحقيقة.

ما المراد بالقبلة؟

القبلة ما يتوجّه إليه الناسك في عبادته. وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام أنّه قال: «**لمّا كان رسول الله ﷺ بمكّة، أمره الله -تعالى- أن يتوجّه نحو بيت المقدس في صلاته، ويجعل الكعبة بينه وبينها إذا أمكن، وإذا لم يمكن استقبل بيت المقدس كيف كان، فكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك طول مقامه بها ثلاث عشرة سنة، فلمّا كان بالمدينة؛ وكان متعبّداً باستقبال بيت المقدس، استقبله وانحرف عن الكعبة سبعة عشر شهراً أو ستّة عشر شهراً، وجعل قوم من مردة اليهود يقولون: والله ما درى محمّد كيف يصلّي حتّى صار يتوجّه إلى قبلتنا، ويأخذ في صلاته بهدينا ونسكنا، فاشتدّ ذلك على رسول الله ﷺ لِما اتصل به عنهم، وكره قبلتهم، وأحبّ الكعبة، فجاءه جبرائيل عليه السلام، فقال له رسول الله ﷺ: يا جبرائيل، لوددت لو صرفني الله عن بيت المقدس إلى الكعبة، فقد تأذّيت**

بما يتّصل بي من قبل اليهود من قبلتهم، فقال جبرائيل عليه السلام: فاسأل ربّك أن يحوّلك إليها، فإنّه لا يردّك عن طلبتك، ولا يخيّبك من بغيتك، فلمّا استتمّ دعاءه صعد جبرائيل، ثمّ عاد من ساعته، فقال: اقرأ يا محمّد: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ﴾...»[1].

فلسفة اتّخاذ القبلة

تشريع القبلة في الصلاة وفي غيرها (الذبح...) متسالم عليه بين المسلمين، وله دلالته الدينيّة والاجتماعيّة، فالله -تعالى- لا تحدّه جهة ولا مكان: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[2]، فالتوجّه إليه إنّما يكون بالقلب والنيّة، ولكن بما أنّ الصلاة أفعال مخصوصة، والقائم بها لا بدّ له من وجهة ماديّة تضاف إلى الوجهة القلبيّة، وكما أنّ أفعال المصلّي في القيام والركوع والسجود تجسّد حالة الخضوع والاستسلام الذي ينبع من القلب، فكذلك في الاستقبال، ولكنّ الاستقبال يكون إلى مكان أو جهة أكثر تعبيراً عن الوجهة المطلوبة؛ فلذا كانت الكعبة هي ذلك المكان؛ باعتبارها أوّل بيت وضع للناس، وأوّل بقعة عبد الإنسان فيها ربّه يوم هبط آدم عليه السلام إلى الأرض، فجعل التوجّه إلى بيت الله؛ لأنّه المكان

(1) الطبرسيّ، أحمد بن عليّ، الاحتجاج، تعليق: محمّد باقر الخرسان، مؤسّسة النعمان، النجف الأشرف، 1386هـ.ق/ 1966م، لا. ط، ج1، ص43.
(2) سورة البقرة، الآية 115.

المحسوس والملموس الذي يرتبط به -تعالى-، ويذكِّر به، ويعبد فيه، لا ليكون المكان معبوداً، بل ليكون المكان جهة مادّيّة ترمز إلى الوجهة القلبيّة.

كما أنّ للقبلة بُعداً اجتماعيّاً، حيث إنّها توحّد بين أهل الصلاة في صلاتهم؛ لأنّ التوجّه إلى جهات شتّى فيه تعبير عن التفرّق والتشتّت والتشرذم، وبينما توجّههم إلى بيت الله الحرام يوحّدهم في وجهة مادّيّة واحدة، وفي عبادة واحدة، وفي طاعة ربّ واحد.

وقد نهى الشرع الحنيف عن استقبال القبلة واستدبارها في بعض الحالات، وأمر باستقبالها في حالات أخرى، أو ندب إلى استقبالها، احتراماً وتعظيماً للكعبة، وتمييزاً بين أوضاع الإنسان وحالاته.

لماذا تغيير القبلة؟

ورد أنّ اليهود؛ كما شنّعوا على رسول الله ﷺ اتّباعه قبلتَهم لدى قدومه إلى المدينة، كذلك شنّعوا عليه، إعراضه عنها، وانتقاله إلى قبلة أخرى، فقد روي عن الإمام العسكريّ عليه السلام أنّه قال: «**وجاء قوم من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمّد، هذه القبلة بيت المقدس قد صلّيت إليها أربع عشرة سنة، ثمّ تركتها الآن، أفحقّاً كان ما كنت عليه، فقد تركته إلى باطل، فإنّ ما يخالف الحقّ باطل، أو باطلاً كان ذلك، فقد كنت عليه طول هذه المدّة، فما يؤمننا أن تكون الآن على باطل؟**

فقال رسول الله ﷺ: بل ذلك كان حقّاً وهذا حقّ، يقول الله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، **إذا عرف صلاحكم أيّها العباد في استقبال المشرق أَمَرَكم به، وإذا عرف صلاحكم في استقبال المغرب أَمَرَكم به، وإنْ عرف صلاحكم في غيرهما أَمَرَكم به، فلا تنكروا تدبير الله في عباده وقصده إلى مصالحكم»**[1].

والظاهر أنّ استقبال بيت المقدس في المرحلة المكّيّة جاء نتيجة قيام أصنام قريش المعروفة في الكعبة ومحيطها، بما قد يُوهم استقبال الرسول لها، واستمرّ في المدينة في الفترة الأولى؛ اختباراً لليهود، وإظهاراً لمكرهم وشقاقهم وخبثهم، ونسخت إلى الكعبة المشرّفة بعد أن أصبح الداعي الأوّل منتفياً، والثاني بخلاف ما كان عليه.

ومهما يكن، فإنّ تفاصيل العبادات أمور توقيفيّة اعتباريّة قابلة للتبديل والتغيير وَفق مشيئة المعبود الذي له أن يأمر عباده بعبادته كيفما شاء ومتى شاء، والجهات كلّها لله يأمر باستقبال ما يشاء منها نحو الشرق أو نحو الغرب.

أحكام القبلة

أوجبت الشريعة الإسلاميّة استقبال الكعبة المشرّفة في الصلاة الواجبة وفي الذبح، ونهت عن استقبال القبلة أو استدبارها التخلّي،

(1) الطبرسيّ، الاحتجاج، مصدر سابق، ج1، ص44.

وحكمت بكراهيّة الاستقبال حال الجماع، واستحباب الجلوس إلى القبلة حال قراءة القرآن، بل في مطلق الأحوال.

والقبلة هي الكعبة لمن كان في المسجد أو خارجه، لكنّ الواجب هو سَمتها وجهتها، فلا يضرّ الانحراف القليل، إذا لم يخرج المصلّي عن سَمت القبلة.

﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾:

تكرّر في القرآن الكريم ربط الهداية والإضلال بالمشيئة الإلهيّة، فهل يعني ذلك أنّه -تعالى- يربط ذلك بمشيئته دون أيّ عوامل أخرى، ودون أن تكون للعبد إرادة أو مشيئة؟

والجواب: إنّه -تعالى- حكيم قدير عليم، ولا يمكن أن يخرج من دائرة سلطانه وإرادته شيء؛ أمّا أنّه متى يشاء ومتى يريد؛ فهذا أمر آخر. والآية هنا، وفي مواضع كثيرة تشير إلى جانب واحد، وهو ما يرتبط بمشيئته -تعالى-؛ أمّا الجانب الآخر المرتبط بالمقدّمات ومشيئة العبد، فمسكوت عنه؛ وعليه، فإنّ مقتضى الحكمة والعدل أن تكون مشيئة الهداية من الباري، عندما يُقبِل العبد على ربّه، ويطلب الهداية، ويسعى لها، وأن تكون مشيئة الإضلال من الباري عندما يتولّى العبد عن ربّه، ويرفض الهداية، ويسير في طريق الضلال.

فما توهّمه الناس من أنّ هذه الآية تستلزم الجبر وخروج الأمر عن إرادة العبد، وبالتالي عدم مسؤوليّته عن هدايته وضلاله وفعله وتركه، باعتبار أنّه بإرادة الله ومشيئته، باطل بلا شكّ؛ لتنافيه مع

العدل والحكمة. ومنشأ ذلك توهّم التنافي بين إرادة العبد وإرادة المولى، مع أنّ الثابت أنّه -تعالى- هو الذي شاء أن يكون عبده مختاراً مريداً، فإذا اختار العبد طريقاً، اختاره الله له؛ بأنْ يسّر وهيّأ له أسبابه، وأعطاه القدرة على ذلك؛ وهذه هي مشيئة الباري التي تأتي وَفق الحكمة.

فإثبات المشيئة والإرادة لله -تعالى- لا يستلزم نفي الحكمة والعدل، بل العكس، ولا يستلزم نفي إرادة العبد واختياره.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

تقدّم في تفسير سورة الفاتحة أنّ الصراط هو الطريق الذي لا انحراف فيه عن الحقّ. والحقّ أن يكون العبد مطيعاً لربّه، منقطعاً عمّا سواه؛ بمقتضى عبوديّته.

ولذا، ورد تطبيق الصراط المستقيم على ولاية الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام؛ لأنّه الطريق المؤدّي إلى الله، دون أيّ انحراف أو اعوجاج.

الآية (143)

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

ذُكِرَت وجوه عدّة في المراد من الأمّة الوسط، هي:

1. الوسط بلحاظ المكان والجهات. وهذا المعنى ينسجم مع كون الكعبة نقطة وسطيّة في الكرة الأرضيّة على مستوى اليابسة، فهي في مركز المعمورة.
2. الوسط بلحاظ الاتّجاهات الفكريّة والدينيّة والمذهبيّة. وينسجم هذا المعنى مع مبدأ التوازن والاعتدال والاستقامة في المنهج والطريق الذي لا يأخذ بالانحراف إلى اليمين ولا إلى اليسار، وهو وسط يهدي إلى سواء السبيل، لا إلى هذا الطرف ولا إلى ذاك. ومن الواضح أنّ تعاليم الإسلام تعطي للجسد حقّه وللروح حقّها، للدنيا حقّها وللآخرة حقّها، تجمع بين الكمالين الروحيّ والجسديّ، المعنويّ والمادّيّ.
3. الوسط بلحاظ توسّطها بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين الناس، وللربط بين هذا المعنى وتفرّع الشهادة عليه؛ فهي شهيدة على الناس، والرسول شهيد على الأمّة، فهي وسط بين الشاهد والمشهود عليه[1].
4. الوسط بمعنى العدل، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**خير الأمور أوسطها**»[2]؛ أي أعدلها، لا إفراط ولا تفريط، وهو ما يوافقه نصّ أهل اللغة.
5. الوسط بمعنى الأئمّة الحجج عليهم السلام؛ لما ورد في الروايات المأثورة:

فعن الإمام عليّ عليه السلام: «**ونحن الذين قال الله -تعالى-:**

(1) العلامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص322-323.
(2) الليثيّ الواسطيّ، الشيخ كافي الدين أبو الحسن علي بن محمّد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، إيران - قم، 1418هـ، ط1، ص240.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**ولقد قضي الأمر أن لا يكون بين المؤمنين اختلاف، ولذلك جعلهم شهداء على الناس؛ ليشهد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم علينا، ولنشهد على شيعتنا، ويشهد شيعتنا على الناس**»[2].

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**نحن نمط الحجاز**، قلت وما نمط الحجاز؟ قال: **أوسط الأنماط، إنّ الله يقول:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾، ثمّ قال: **إلينا يرجع الغالي، وبنا يلحق المقصّر**»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام -أيضاً-: «**ولا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمّة عليهم السلام والرسل. فأمّا الأمّة، فإنّه غير جائز أن يستشهدها الله وفيهم من لا تجوز شهادته في الدنيا على حزمة بقل**»[4].

وعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**نحن الأمّة الوسطى، ونحن شهداء الله على خلقه، وحججه في أرضه**»[5].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**نحن الشهداء على الناس بما عندهم من الحلال والحرام، وما ضيّعوا منه**»[6].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**قال الله:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، مصدر سابق، ج2، ص283.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص251.
(3) العيّاشيّ، تفسير العيّاشيّ، مصدر سابق، ج1، ص63.
(4) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب عليهم السلام، مصدر سابق، ج3، ص314.
(5) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص190.
(6) الصفّار، محمّد بن الحسن، بصائر الدرجات، تصحيح وتعليق وتقديم: حسن كوچه باغي، مؤسّسة الأعلميّ، مطبعة الأحمديّ، إيران - طهران، 1404هـ.ق/ 1362هـ.ش، لا. ط، ج2، ص102.

﴿وَسَطًا﴾، فإنْ ظننت أنّ الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين، أفترى أنّ من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة، ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟! كلّا، لم يعنِ الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمّة التي وجبت لها دعوة إبراهيم ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ وهم الأمّة الوسطى، وهم خير أمّة أُخرجت للناس»[1].

﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾:

ذكر القرآن الكريم الشهادة في مواضع عدّة. وشهادة رسول الله ﷺ وإنْ كانت على الأمّة الوسط، ولكن ورد في موضع آخر أنّ شهادته على الشهداء من الأمم السابقة واللاحقة كلّها؛ قال -تعالى-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[2].

وأمّا كيفيّة الشهادة فذُكِر فيها وجوه عدّة منها:

1. إنّها إشارة إلى الأسوة والقدوة؛ لأنّ الشهداء هم أزكى الناس وأمثلهم، فالأمّة الوسط هي الأمّة النموذجيّة، بما لديها من منهج قويم وعقيدة سليمة، فهي شهيدة على كلّ من اتّبع الانحراف بأنّ الصواب كان بيّناً، وفي متناول من رام الوصول إليه، وأنّه كان بمقدوره أن يحصل عليه ويلتزم به.
2. إنّها أداء كما تؤدَّى شهادة الشاهد في الدنيا، وكما تشهد الجوارح والحواسّ والملائكة يوم القيامة. وعلى الأولى تكون الشهادة

(1) العيّاشيّ، تفسير العيّاشيّ، مصدر سابق، ج1، ص63.
(2) سورة النساء، الآية 41.

دنيويّة، وعلى الثانية تكون الشهادة أخرويّة.

وعلى أيّ وجه، فقد وردت الشهادة في القرآن الكريم في مواضع عدّة، منها:

أ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾[1].

ب. ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾[2].

ج. ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[3].

د. ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾[4].

هـ. ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[5].

و. ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[6].

ز. ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾[7].

ط. ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾[8].

ظ. ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[9].

ك. ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾[10].

وأصل الشهادة من الشهود، وهو الحضور: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ

(1) سورة فصلت، الآية 20.
(2) سورة الأنعام، الآية 130.
(3) سورة النور، الآية 24؛ وقريب منه: سورة يس، الآية 65.
(4) سورة المزمل، الآية 15.
(5) سورة الفتح، الآية 8؛ سورة الأحزاب، الآية 45.
(6) سورة آل عمران، الآية 53؛ سورة المائدة، الآية 83.
(7) سورة النساء، الآية 41.
(8) سورة المائدة، الآية 117.
(9) سورة النحل، الآية 89.
(10) سورة الحج، الآية 78.

﴿ٱلشَّهۡرَ﴾[1] مقابل الغياب. وسّمي الشاهد شاهداً؛ لحضوره وشهوده الواقعة وأداء الشهادة، باعتبار أنّه كان شاهداً حاضراً.

وفي هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها وأمثالها من الآيات، يمكن استفادة أمور عدّة، منها:

1. يشهد المبلّغ على من يزعم أنّه لم يعلم، وذلك من منطلق التبليغ وبيان الحقيقة وإقامة الحجّة.
2. يشهد المربّي والمرشد والهادي -أيضاً- بالاعتبار المتقدّم نفسه.
3. يشهد المؤمن الملتزم المطيع، باعتبار أنّه أثبت عالم الإمكان بفعله، وكفاية الحجّة بإيمانه وتسليمه.
4. يؤدّي الجميع الشهادة بين يدي الله بالاعتبارات المتقدّمة جميعها .

وقد فرّع الله -تعالى- بشهادة الأمّة على أمور، هي:

1. كونها أمّةً وسطاً، كما في هذه الآية.
2. كونها أمّة اجتباها وهداها، كما في سورة الحجّ.

وتجدر الإشارة إلى أنّ شهادة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وشهادة الجوارح والحواسّ، وشهادة الشهداء ليست لحاجة المولى -عزّ وجلّ- إلى دليل إثباتيّ، كما في مواقف القضاء الدنيويّ، بل لحاجة المشهود عليه إلى ذلك الإثبات، فعلى الرغم من كونه فاعلاً، والفاعل مدرك لِما يقوم به، لكنّه يجد ما عمل حاضراً، ويجد كلّ ما

(1) سورة البقرة، الآية 185.

لم يكن يستتر منه شاهداً، فيسقط في يده ويأس من التهرّب ممّا كان منه، وإلّا فإنّ الله -تعالى- شهيد بنصّ القرآن.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾:

تشير الآية إلى فلسفة تشريع القبلة السابقة، وذلك تمهيداً لذِكْر القبلة الجديدة، بعد أن مهّد لها بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، والسبب هو إرادة تمييز المؤمن حقّاً من مدّعي الإيمان والمسلم من المشكّك.

والمراد بمن ينقلب على عقبيه، كناية عن الإعراض والتراجع بعد الإقبال، فكأنّ المقبل إذا أعرض التفّ إلى الوراء، فانقلب إلى جهة العقب.

وعلم الله -تعالى- على نحوين:

1. علم سابق على الإيجاد والخلق، وهو أزليّ.
2. علم يتحقّق بالإيجاد والخلق، وهو العلم العينيّ التابع لحضور المخلوق ووجوده؛ وعليه، فلا يستلزم إثبات العلم المتجدّد تقدّم الجهل؛ لأنّ هذه الرتبة من لوازم الوجود، وتلك المرتبة سابقة، ولا يمنع السابق من تحقّق المتجدّد، بل هو شرط له.

وقيل: إنّ المراد من قوله -تعالى- ﴿لِنَعْلَمَ﴾ هو الأنبياء والملائكة، وهو -تعالى- تحدّث باسمهم، وفيه تكلّف.

الآية (144)

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾:

تشير الآية إلى أنّ رسول الله ﷺ كان ينتظر تغيير القبلة قبل نزول الآيات، لكنّ السؤال: عمّ كان يبحث رسول الله ﷺ في تقلّب وجهه في السماء؟ وفيه وجوه:

1. التقلّب كناية عن الدعاء والابتهال والتضرّع، وهذا مبنيّ على أنّ الرسول ﷺ هو الذي سأل الله -تعالى- تحويل القبلة، وهو يتناسب مع قوله بعدها: ﴿قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾.
2. كان التقلّب في السماء انتظاراً وتطلّعاً لنزول الوحي المتضمّن لتحويل القبلة، وهو مبنيّ على ما قيل من أنّه ﷺ أُخبِر بأمر التحويل قبل حصول التشريع.
3. النظر إلى البيت المعمور الذي تطوف به الملائكة. ويساعد على هذا الوجه روايات عدّة وردت في علّة الطواف بالبيت[1].

والبيت المعمور على ما في الروايات التي أشرنا إلى مصدرها آنفاً، هو بيت في السماء، وفي بعضها أنّه يدعى الضراح، وفي بعضها الآخر أنّ في الضراح بيتاً؛ وأنّ البيت المعمور في السماء الدنيا، بحذاء الضراح، وأنّ البيت الحرام بحذاء البيت المعمور.

(1) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج9، ص272.

وعلى كلّ حال، فإنّه قد لا يكون المقصود بالمحاذاة هو المحاذاة المكانيّة؛ لأنّ أمكنة المواقع على الأرض تتغيّر بالنسبة إلى السماء، فهي في حركة دائمة، فيكون المقصود المحاذاة من ناحية الدور والوظيفة؛ فيكون ثمّة بيت لطواف الملائكة، وبيت لطواف المؤمنين.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾:

وعدٌ قاطع بتغيير القبلة إلى قبلة يرضاها الرسول ﷺ، وتحدّدها الجملة الآتية؛ فاللام في (لنولّينّك) للتأكيد، وكذلك النون، لكنْ هل يدلّ ذلك على أنّ رسول الله ﷺ لم يكن راضياً عن القبلة الأولى؟ وهل يمكن لرسول من الرسل أن يُؤمَر بأمر، فيبدي كراهيةً لتنفيذه وتبرّماً وسخطاً؟!

والجواب: إنّ التسليم لأمره -تعالى- والرضى بحكمه، من شروط أهليّة النبيّ ﷺ لهذه المهمّة ولهذا الشرف اللذين اختصّهما به، فلا يمكن أن نتصوّر الرسول ﷺ كارهاً لقبلته الأولى، وإنْ كان راغباً في إجراء تحوّل لأسباب يراها، أو متوقّعاً للتغيير، فيجب أن يكون إلى البيت العتيق، وحيث يطوف الملائكة في البيت المعمور، وليكون في ذلك الحجّة على أهل الكتاب.

ولا يصحّ أن تُصْرَف رغبة الرسول ﷺ إلى شؤون ذاتيّة، كرغبته -مثلاً- في أن يكون موطنه وموطن أجداده قبلة للمسلمين، أو أنْ يرضي بذلك جهابذة القوم الذين أخرجوه من داره، أو غير ذلك...

﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾:

تحديد للقبلة الجديدة، لكنْ ما مدى الدقّة المطلوبة في الاتّجاه نحوها، حسبما يستفاد من الآية؟

والشطر في اللغة له استعمالات، منها: «شطر كلّ شيء قصده، وشطر كلّ شيء نصفه...»[1].

فمن الواضح أنّ المراد في الآية هو المعنى الأخير؛ أي الجهة والناحية والقصد، فكأنّه قال: ولّوا وجوهكم ناحية المسجد الحرام وجهته.

وعليه، فيضعف قول من قال إنّ المراد وسط المسجد؛ أي الكعبة، بناءً على أنّ الشطر بمعنى النصف، فإنّ النصف هنا ليس بمعنى الوسط، ولا يستعمل الشطر بهذا المعنى، وإنّما بمعنى القطعة المفصولة المشطورة.

وعليه، تكون القبلة هي الجهة التي يقع فيها المسجد الحرام. وهذا لا يستوجب الدقّة العلميّة التي تتعذّر على كثير من الناس، فالمحاذاة المطلوبة هي المحاذاة العرفيّة، وهي تتّسع كلّما ازداد المصلّي بُعداً، فالبعيد يمكن أن يستقبل مكّة.

وقد عدّ فقهاؤنا القبلة هي الكعبة، بينما الآية تعبّر بالمسجد الحرام، ولا شكّ في أنّ الكعبة هي قلب المسجد، والمصلّي في المسجد عليه استقبال الكعبة، وإذا ابتعد كثيراً، فاستقبل المسجد، فقد استقبل الكعبة. ودليلهم على أنّ الكعبة هي القبلة فعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكثير من الروايات المأثورة.

(1) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي؛ الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ، ط2، ج6، ص233، مادّة «شَطَرَ».

والآية، وإنْ خصّت الوجه في التولّي شطر المسجد، ولكنّ الوجه يشمل المقادم كلّها، فليس لأحد أن يصلّي إلى غير جهة وينحرف بوجهه إلى القبلة.

﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾:

فبعد أن خاطب الرسول ﷺ بالاستقبال، عاد وخاطب المسلمين جميعاً بذلك مع تعميم المكان.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾:

بيان حقيقة أخرى، وهي أنّ أهل الكتاب يعلمون أنّ استقبال المسجد الحرام حقّ، أو يعلمون أنّ هذا النبيّ يصلّي إلى القبلتين على ما ورد في عدد من الروايات المأثورة، ومع ذلك حاولوا التشويش وإثارة الشكوك والجدال؛ لصدّ المؤمنين عن اتّباع الرسول ﷺ.

فهذه واحدة من الآيات البيّنات التي أخبرت عن شدّة عناد اليهود، واستكبارهم، ومحاولتهم التنكّر للحقّ وتزوير الحقائق.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾:

تختم الآية بالتذكير والتحذير من حساب الله -تعالى-، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغفل عن شيء من أفعال الخلق، فكلّ شيء في كتاب، وهو محفوظ، وسوف يلقاه الإنسان يوم الحساب. ومن جهة أخرى، تطمئن هذه الخاتمة المؤمنين وتسلّيهم؛ وذلك لكي لا يقعوا فريسة الإحباط واليأس عندما تواجههم حِيَل اليهود وخدعهم وفتنهم.

الآية (145)

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الآية في معنى القسم، ومفاده: والله لئن أتيت الذين أعطوا الكتاب بكلّ حجّة، فإنّهم لن يتّبعوا قبلتك؛ لعناد علمائهم وجحودهم، وجهل أتباعهم وتقليدهم الأعمى لعلمائهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1].

وذُكِر في المراد من ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وجهان، هما:

1. أهل العناد من علماء اليهود والنصارى.
2. جميع أهل الكتاب.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾:

ذُكِرَ في المراد من هذا النفي وجوه، هي:

1. إنّه رفع لتجويز النسخ في حقّ القبلة، فهي غير قابلة للنسخ بعد ذلك.
2. إنّه في مقام المقابلة بين اتّباع النبيّ ﷺ للحقّ وإعراضهم هم عنه؛ ولذلك قال: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾.

(1) سورة البقرة، الآيات 75-78.

3. إنّه لا يمكنك استصلاحهم باتّباع قبلتهم؛ لاختلاف وجهتهم؛ لأنّ النصارى تتوجّه إلى جهة المشرق، وهو الموضع الذي ولد فيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليهود إلى بيت المقدس، فبيّن الله سبحانه أنّ إرضاء الفريقين محال.
4. إنّه في مقام حسم أطماع أهل الكتاب من اليهود، حيث إنّهم كانوا طمعوا في ذلك، وظنّوا أنّ يرجع النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى الصلاة إلى بيت المقدس، فردّ عليهم بأنّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لن يتّبع قبلتهم؛ لأنّه على بينة من ربّه. وهذا الوجه هو الأقرب.

﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾:

من باب الإخبار بالغيب بأنّه لا يصير النصارى كلّهم يهوداً، أو يصير اليهود كلّهم نصارى أبداً، كما أنّه لن يتّبع جميعهم الإسلام.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الخطاب للنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والمراد أمّته، وذلك من باب (إيّاك أعني واسمعي يا جارة).

وفيه تهديد لهم بأنْ لا يغتروّا ويفتتنوا بكلام اليهود في ما يرتبط بتحويل القبلة، ولا سيّما بعد أن جاءهم العلم عن طريق الآيات والوحي، وتبيّن لهم أنّ الحقّ ما هم عليه من القبلة والدين.

وفي الآية توبيخ وتبكيت لليهود بأنّهم أصحاب أهواء فاسدة لا يتّبعها إلّا الظالمون.

الآية (146)

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾:

هذه الآية من أوضح الآيات التي تُظهر معرفة الذين أوتوا الكتاب بالحقيقة. وقد تقدّم قبل آيتين أنّهم يعلمون أنّه الحقّ من ربّهم. وهذه الآية تؤكّد أنّهم يعرفون النبيّ ﷺ معرفة وثيقة ودقيقة، كما يعرف الإنسان ابنه، وهي أرقى مراتب المعرفة التعيينيّة التي لا يدانيها ريب ولا شكّ، ومع ذلك فهم ينكرون ويكابرون ويجحدون ما عرفوا. ومثلها قوله -تعالى-: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[1].

ومرجع الضمير في ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعود إلى النبيّ ﷺ.

وقيل: الكتاب؛ لأنّه أقرب مذكور ظاهر، وينافيه التشبيه بمعرفة الأبناء الذي يفترض سنخيّة المعرَّف.

وقيل: أمر القبلة، وعليه يصبح تكراراً لما تقدّم من قوله -تعالى-: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾.

والأوفق هو القول الأوّل؛ لانسجامه مع السياق التصعيديّ، وأنّهم يعرفون أمر القبلة، ويعرفون النبيّ ﷺ، كما يعرفون أبناءهم.

ويؤيّده الرواية التي وردت في تفسير علي بن إبراهيم القمّيّ، بإسناده عن الإمام أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى، يقول الله -تبارك وتعالى-:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ

(1) سورة الأعراف، الآية 157.

ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾، **يعني الرسول** ﷺ، **كما يعرفون أبناءهم؛ لأنّ الله -عزّوجلّ- قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمّد** ﷺ**وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجرته»**[1]. ومثله حديث مرويّ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام[2].

وفي الآية التفات من خطاب النبيّ ﷺ إلى خطاب المؤمنين، حيث فُرض النبيّ ﷺ غائباً، ثمّ بعد تمرير هذه الحقيقة عاد إلى خطاب الرسول ﷺ.

وذِكْر هذه الحقيقة في الآيات الشريفة على مسمع من اليهود والنصارى كان يمثّل تحدّياً لهم، وقد أحرجهم أمام المسلمين وأمام أتباعهم. ومن المعروف أنّ أهل الكتاب تفرّقوا إلى فريقين؛ فريق أذعن للحقّ ودخل الإسلام، وأقرّ بأنّ هذا النبيّ وَفق الصفة التي حدّدها كتابهم، ووفق ما بشّرهم به أنبياؤهم؛ وفريق جحدوا وعتوا واستكبروا.

فكان ما أرادوا إثارته من تشكيكات في انتقال الرسول ﷺ من استقبال القبلة الأولى إلى الثانية، وأنّ ذلك يوجب الريب في نبوّته ورسالته وما جاء به كلّه، بمثابة العلامة والدليل القاطع على نبوّة النبيّ ﷺ وصدق رسالته؛ وذلك لمعرفتهم بالنبيّ بصفته المعهودة في تراثهم، ومنها تحويل القبلة.

(1) القمّي، تفسير القمّي، مصدر سابق، ج1، ص33.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص283.

والتعبير بالذين أوتوا الكتاب وإنْ كان عامّاً يشمل كلّ من تعبّد بدين اليهوديّة والنصرانيّة، ولكنّ المراد (على الظاهر) علماء أهل الكتاب دون عوامّهم؛ لأنّهم هم الذين يصحّ فيهم المعرفة التفصيليّة الدقيقة التي وصفتها الآية.

لكن، هل يعذر العوامّ في تقليدهم لعلمائهم المنحرفين الذين يكتمون الحقائق؟

روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله -تعالى-: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، قال له رجل: فإذا كان هؤلاء القوم من اليهود لا يعرفون الكتاب، إلّا بما يسمعونه من علمائهم، لا سبيل لهم إلى غيره، فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوامّ اليهود إلّا كعوامّنا يقلّدون علماءهم؟! فقال عليه السلام: **بين عوامّنا وعلمائنا وعوامّ اليهود وعلمائهم فرق من جهة، وتسوية من جهة: أمّا من حيث استووا، فإنّ الله قد ذمّ عوامّنا بتقليدهم علماءهم، كما ذمّ عوامّهم، وأمّا من حيث افترقوا فلا**. قال: بيّن لي يابن رسول الله. قال عليه السلام: **إنّ عوامّ اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح، وبأكل الحرام، والرشاء، وبتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصّب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، وأنّهم إذا تعصّبوا أزالوا حقوق من تعصّبوا عليه، وأعطوا ما لا يستحقّه من تعصّبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعرفوهم يقارفون المحرّمات، واضطرّوا بمعارف قلوبهم إلى أنّ من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز أن يصدّق على الله، ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله؛ فلذلك**

ذمّهم لمّا قلّدوا من قد عرفوه، ومن قد علموا أنّه لا يجوز قَبول خبره ولا تصديقه في حكايته. وكذلك عوامّ أمّتنا إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر، والعصبيّة الشديدة، والتكالب على حطام الدنيا وحرامها، فمن قلّد من عوامّنا مثل هؤلاء الفقهاء، فهم مثل اليهود الذين ذمّهم الله بالتقليد لفسقة فقهائهم. فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه، وذلك لا يكون إلّا بعض فقهاء الشيعة، لا جميعهم»[1].

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

نُسب كتمان الحقّ إلى فريق دون آخر؛ لأنّ بعضاً منهم أذعن للحقيقة وآمن به صلى الله عليه وآله وسلم.

الآية (147)

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾:

هل يدلّ ذلك على أنّ شكّاً اعتراه صلى الله عليه وآله وسلم، فنهاه الله عن ذلك؟

الجواب: كلاّ، ولكنّ الآية تخاطب المسلمين بشخص النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، من باب (إيّاك أعني واسمعي يا جارة). وقد شدّد فيما تقدّم من آياتٍ على معرفة أهل الكتاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولأمر القبلة وكتمانهم الحقيقة، فتوجّه إلى المسلمين ليطمئنهم، ويقوّي إيمانهم ويقينهم، ويدفع الريب عن قلوبهم.

(1) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، إيران - قم المقدسة، ربيع الأول 1409، ط1، ص299-300.

الآية (148)

﴿وَلِكُلٍّ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

هذه الآية على نسق قوله -تعالى-: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾[1]، وفيها توجيه للأمّة إلى عدم الاستغراق في الجدال حول القبلة، فلكلّ فريق جهته التي يستقبلها، ووجهته التي يسعى لبلوغها: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[2]، فكأنّه يقول لهم: إذا لم يقبلوا منكم، ولم يقتنعوا، فدعوهم، وتوجّهوا إلى العمل: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾، فالمرجع إليه -تعالى-، والحساب عليه.

﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾:

أي مهما ابتعدتم، وأينما توجّهتم، فالله يجمع الناس ليوم الحشر والحساب، فلا يضيع عمل ولا يعجزه من يتولّى. وقد ورد تطبيق الآية على أصحاب القائم عجّل الله فرجه الخواصّ الذين يجتمعون تحت رايته من بلدان شتّى[3].

الآية (149)

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

عود على بدء، وتكرار للأمر بالتوجّه إلى القبلة الجديدة؛ أي

(1) سورة المائدة، الآية 48.
(2) السورة نفسها، الآية 105.
(3) انظر: الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص313.

المسجد الحرام، وفي أيّ بقعة خرجت إليها أو خرجتم أيّها المسلمون، وأنّه الحقّ الذي لا يشوبه الباطل، على الرغم ممّا أثاره الناس.

الآية (150)

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

تعليل أو بيان لعاقبة هذا التشريع ونتائجه، حيث يترتّب على التشريع الجديد ثلاث فوائد بحسب هذه الآية وما قبلها:

1. إنّ اليهود يعلمون -بحسب كتبهم وما ورثوه عن أنبيائهم- أنّ قبلة النبيّ الموعود ستكون المسجد الحرام في مكّة، واتّباعه لقبلتهم في هذه المرحلة وما بعدها يعطيهم الحجّة بإنكار نبوّته على ضوء هذا التشريع. وهذا الحكم يقطع حجّتهم، ويمنع -أيضاً- إمكانيّة إساءة الاستفادة من التوجّه نحو قبلتهم، وذلك بوصفه دليلاً على أصالة دينهم وتبعيّة الدين الجديد وتفرّعه على دينهم، فالحكم الجديد ينهي هذه القضية ويقطعها. نعم، يبقى الظالمون الذين لن ينقطعوا عن إثارة الشكوك والشبهات نتيجة اتّباع الأهواء، فلا تخشوهم، ولا تخافوا تأثيرهم.
2. إتمام النعمة، والمقصود بها نعمة التشريع وبيان الأحكام التي ينتظم بها الدين والشريعة الكاملة التي ترتقي بالإنسان المؤمن إلى مدارج الكمال في عبوديّته لله وتحقيق غايات وجوده.
3. هدايتكم إلى الحقّ والطريق القويم والصراط المستقيم.

الآية (151)

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾:

أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى سنّة إلهيّة في إرسال الرسل، وهي أنّ الرسول المبعوث في قوم يكون منهم، كما في قوله -تعالى-: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾[1]، ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[3]، ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[4]، ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[5]، ولعلّ السبب في ذلك:

1. إنّ الرسول المبعوث من الأمّة نفسها يكون معروفاً لهم بتاريخه الناصع، وأخلاقه، وصدقه.
2. إنّه أحرص على أمّته من الغريب -بحسب العادة-، فلا يتّهم بأنّه يريد استغلالهم والتفريط بهم: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾.

(1) سورة البقرة، الآية 128.
(2) سورة المؤمنون، الآية 32.
(3) سورة الجمعة، الآية 2.
(4) سورة التوبة، الآية 128.
(5) سورة آل عمران، الآية 164.

3. قدرته على التواصل معهم؛ لاتّحاد لسانه ولغته مع لسان قومه ولغتهم، ومعرفته بالعادات والتفاصيل المرتبطة بأمّته: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه السنّة في إرسال الرسل لا تتنافى عموم الرسالة وعالميّتها، فالرسول المبعوث في أمّة، وإنْ كان من أبناء المنطقة المبعوث فيها، لكنّ التوسّع والشموليّة وعموم الرسالة تبقى ممكنة؛ لأنّ نقطة البداية والانطلاق والقاعدة التي يبني عليها الرسول دعوته هي القوم الذين بُعث فيهم أوّلاً، فلا بدّ من وحدة اللغة والمعرفة التفصيليّة في النشأة. وإذا آمن هؤلاء يسهل قبول الدعوة من الآخرين، وإلّا فالأمر يصبح أكثر صعوبة، وليس مستحيلاً.

ومن مهامّ الرسول التي ذُكِرَت في هذه الآية:

1. تلاوة الآيات على الناس؛ أي تبليغ نصّ الكتاب.
2. تزكيتهم؛ أي تزكية النفوس، وهي إمّا مأخوذة من النماء والزيادة، وتعني التربية ببعدها الكماليّ، بأنْ يكسب الإنسان نفسه أو يكسبها الآخرون كمالاتها الروحيّة؛ وإمّا من التطهّر والنقاء، وتعني إزالة ألوان الرذائل، وتطهير النفوس من الآثام والخطايا، والإعراض عن اتّباع الأهواء والشهوات، وتشمل إزالة الاعتقادات الفاسدة وعبادة الأوثان، فضلاً عن الملكات الرذيلة والأفعال والعادات الشنيعة. وربّما استعملت بالمعنى

(1) سورة إبراهيم، الآية 4.

الشامل للاثنين معاً، على أساس أنّ التربية فيها تخلية ثمّ تحلية؛ أي إزالة وإثبات.

3. تعليم الكتاب والحكمة: هذه الوظيفة مغايرة لتلاوة الآيات؛ لأنّ العطف يستوجب المغايرة، فالتلاوة تبليغ نصّ الكتاب بما هو متضمّن للآيات، والتعليم يشمل بيان مضامين الآيات وتفسير ما أشكل. أمّا الحكمة فقد وقع في تفسيرها خلاف بين المفسّرين، فقيل: إنّها السنّة، وقيل: إنّها أسرار التعاليم الإسلاميّة وعللها ونتائجها، وقيل: إنّها المعارف التي تكون منشأ للعمل، وغير ذلك.

وأمّا أهل اللغة، فقالوا: إنّ الحكمة هي العدل والعلم والحلم[1].

وهي في الأصل من الإحكام؛ أي الإتقان والدقّة. وقد وُصِفَ الله بأنّه حكيم، والقرآن الحكيم، هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها، ويضع الأمور في مواضعها.

وعليه، يمكن أن يقال إنّ الكتاب يشمل الشرائع والأحكام والمعارف التوقيفيّة، والحكمة مجموعة المعارف والعلوم التي تبيّن أسرار الخلق والتوحيد وفلسفة الوجود، وهو ما عُبّر عنه بالأسباب والنتائج. ولا شكّ في أنّ الرؤية الكونيّة، وأسرار الخلق والتوحيد، تشكّل قاعدة للعمل.

(1) انظر: الفراهيديّ، كتاب العين، مصدر سابق، ج3، ص66، مادّة «حَكَمَ».

فقد بيّن القرآن الكريم أنّ الأمر لله، وبيده ملكوت كلّ شيء؛ ما ينفي مدخليّة المعبودات الأخرى في الخلق والتدبير، وأنّ الدنيا فانية، والآخرة هي الحياة الباقية؛ ما يستلزم العمل لها، وأنّ الناس ليس لهم استقلال في المشيئة، وأنّ المشيئة لله.

وقد تكرّر ذِكْر هذه المهامّ الثلاثة في مواضع أخرى من القرآن، هي:

1. في دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾[1].
2. ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[2].
3. ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[3].

واللافت هو تقديم التزكية على التعليم في آية سورة البقرة، وفي الآيتين الأخيرتين من الآيات الثلاثة المتقدّمة، وتأخير التزكية في الآية التي تتحدّث عن دعوة إبراهيم عليه السلام، مع اتّحاد المضمون، وكونه من مهام النبيّ والرسول، ولعلّه لأنّ الدعاء لاحظ الترتيب الطبيعيّ، فالتعليم يسبق التزكية، من حيث الوجود والتحقّق الخارجيّ، والتزكية تشكّل هدفاً سامياً ومهمّاً وغاية من غايات التعليم، ما يستوجب تقديمه، كما حصل في الآيات الثلاثة، وإنْ كان العطف بالأساس لا يستلزم الترتيب.

(1) سورة البقرة، الآية 129.
(2) سورة آل عمران، الآية 164.
(3) سورة الجمعة، الآية 2.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾:

ويُحتمل في هذا القول وجهان:

1. إنّ متعلّق العلم هو ما تقدّم نفسه من الكتاب والحكمة، لكنّه أراد بيان انحصار مصدر التعليم به -تعالى-، وأنّهم لم يكونوا يعلمون ذلك، فهو -إذاً- بيان لما سبق ذِكْره.
2. أن يكون المتعلّق مغايراً لما تقدّم، فيعلّمكم ما هو غير الكتاب والحكمة ممّا لم تكونوا تعلمونه.

الآية (152)

﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾:

بعد بيان نعمة التعليم والتزكية وإرسال الرسل للهداية والتعليم والتزكية، يأمر الله -تعالى- بذِكْره؛ ومعناه أن يبقى الإنسان ملتفتاً إلى فضله وجوده وكرمه ورحمته ولطفه، ولا يخرج عن ذلك بالغفلة عنه والانشغال بغيره عنه. ويعود هذا الذِكْر بفائدته وآثاره على الإنسان نفسه؛ لأنّه يستحقّ عندئذ العناية الإلهيّة التي عبّر عنها بقوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾.

وبين ذِكْر الإنسان لربّه وذِكْر ربّه فوارق؛ حيث إنّه على الرغم من اتّحادهما لفظاً ومفهوماً، إلّا أنّهما يختلفان تماماً مصداقاً وتطبيقاً، فذِكْر الإنسان لربّه التفات وحضور قلبيّ وتنبّه إلى فضله، وهو في مورد يمكن فيه عدمه، وهو الغفلة، لكنّ الله -تعالى- لا يمكن أن يغفل عن عباده، سواء أذكروه أم لم يذكروه، فالمراد من ذِكْره -تعالى- لهم هو العناية الخاصّة التي يوليها من ذَكَره وعَبَده وخَشِيَه

بالغيب، وهو من قبيل: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾[1]، ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾[2].

وللذِكْر مراتب أعلاها الذِكْر القلبيّ، واللسان يعبّر عن ذلك بالذِكْر القوليّ، ولا يغني الثاني إذا غاب الأوّل.

ومن آثار الذِكْر ما نطق به القرآن: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[3].

ولكي يحقّق المؤمن ذِكْر الله، ويجعل قلبه عامراً دائماً بذِكْره -تعالى-، فعليه أن يعمد إلى الوسائل المعينة كلّها، من العبادات، والدعاء، والصلوات، وأعمال الخير، ويحيا حياة عامرة بذكْر بالله، كارتياد المساجد، ومصاحبة الذاكرين، ومجانبة أهل اللهو والعبث وكلّ ما ينسي ذِكْر الله؛ لأنّ ما يسعى الشيطان له هو الصدّ عن ذِكْر الله -تعالى-.

﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾:

إنّ شكر المنعم واجب. والله -تعالى- أنعم على الناس بنعم لا تُعدّ ولا تُحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[4]، منها نعمته عليهم بإرسال الرسل والأنبياء عليهم السلام والهداة، وتوفيقهم لطاعته وعبادته: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[5].

(1) سورة التوبة، الآية 67.
(2) سورة الأعراف، الآية 51.
(3) سورة الرعد، الآية 28.
(4) سورة إبراهيم، الآية 34.
(5) سورة آل عمران، الآية 164.

والتكليف نفسه هو نعمة إلهيّة؛ لأنّه يصبّ في مصلحة العبد، ويفتح له الباب نحو الكمالات الروحيّة والنفسيّة، وارتقاء المراتب، والحصول على منازل القرب منه -تعالى-. وهذه الأمور من أعظم النعم على الإطلاق، لكنْ نظراً إلى غفلة الإنسان عن هذه الحقيقة، وجهله بها، فإنّه يشعر بالعبء ويستثقل التكليف، ويتمنّى لو لم يُفرض عليه، بل يبحث عن العلل والمبرّرات التي تسقط عنه التكليف، مع أنّ في ذلك ضياع فرصة ومنفعة، فمثلاً: عندما يهرب الإنسان من الصوم بالسفر تضيع عليه فرصة صوم الشهر المبارك، وبذلك تضيع الثمرات كلّها المترتّبة عليه، فلا يعدل صوم أيّام الشهر صوم آخر، وإنْ أجزأ في القضاء، ولكنّه لا يعوّض ما فات من الثواب والأجر والآثار الروحيّة.

ولا يتحقّق شكر الله -تعالى- بمجرّد النطق بكلمات الشكر التي يُتلفّظ بها، بل يجب أن تبدأ بالإقرار بالنعمة والفضل، والحرص على استعمال النعم في مرضاة الله، وعدم الاستعانة بها على معصيته، وإلّا فإنّ الشكر الحقيقيّ لا يمكن أن يتحقّق من الإنسان؛ لأنّ كلّ شكر مهما كان، فهو نعمة إلهيّة ومنّة جديدة تستحقّ شكراً. روي عَنْ الإمام أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أنّه قَالَ: «**أَوْحَى اللَّهُ -عزّوجلّ- إِلَى مُوسَى عليه السلام: يَا مُوسَى اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي، فَقَالَ: يَا رَبِّ، فَكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ وَلَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلّا وَأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ؟! قَالَ: يَا مُوسَى الآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي**»[1].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص98.

وفي دعاء مرويّ عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلت لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول: لك الحمد**»[1].

والمراد بالكفر هو كفران النعمة، وليس كفر الجحود؛ لأنّه جُعِل في الآية مقابل الشكر.

وتجدر الإشارة إلى أنّ شكر المحسن من العباد داخل في شكر المولى -عزّ وجلّ-، وأنّ التقصير فيه تقصير تجاهه. روي في الكافي، عَنْ عَمَّارٍ الدُّهْنِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عليه السلام يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزِينٍ، وَيُحِبُّ كُلَّ عَبْدٍ شَكُورٍ، يَقُولُ اللهُ -تبارك وتعالى- لِعَبْدٍ مِنْ عَبِيدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَشَكَرْتَ فُلاناً؟ فَيَقُولُ: بَلْ شَكَرْتُكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: لَمْ تَشْكُرْنِي إِذْ لَمْ تَشْكُرْهُ، ثُمَّ قَالَ: أَشْكَرُكُمْ لِلَّهِ أَشْكَرُكُمْ لِلنَّاسِ**»[2].

الآية (153)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

الصبر: التحمّل وحبس النفس على شيء، ويقابله الجزع. والصبر صبران: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. وسمّي الصوم صبراً؛ لكونه من مظاهره.

(1) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، تحقيق: السيد محمّد باقر الموحد الابطحي الإصفهاني، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام / مؤسسة الأنصاريان للطباعة والنشر، إيران - قم، 1411هـ، ط1، ص410.

(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص99.

وعن الإمام أبي عبد الله عليه السلام في تفسير قوله -تعالى-: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، قال: «**يعني بالصبر الصوم**»، وقال: «**إذا نزلت بالرجل النازلة والشدّة؛ فليصم؛ فإنّ الله -عزّوجلّ- يقول:** ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾»[1].

ووجه الاستعانة بالصبر والصلاة، أنّ الإنسان في مسيرته التكامليّة، وفي أدائه لمقتضى الميثاق، تواجهه عقبات، ويتعرّض لمعوّقات تعرقل مسيرته، وتشدّه نحو الدنيا ولذّاتها وشهواتها، فيحتاج إلى ما يعينه على مقاومتها، والصبر عنها، وتحمّل الشدائد في سبيل التخلّص من إغراءاتها، وتجاوز كمائنها ومطبّاتها، وهو هنا بحاجة إلى الصبر والتحمّل والثبات وقوّة الإرادة، ويعدّ الصوم أحد مظاهره، وأحد العبادات التي تنمّي لديه الإرادة والقدرة على التحمّل، والصلاة تنقل الإنسان إلى عالم الذِكْر، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر؛ فهي تحميه من الغفلة، وتقيه من الانحراف.

وقد وردت روايات كثيرة تحثّ على التحلّي بالصبر، ومنها:

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية**»[2].

عن الإمام عليّ عليه السلام: «**الصبر صبران: صبر على ما تكره، وصبر عمّا تحبّ**»[3].

(1) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج2، ص76.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص91.
(3) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، ج4، ص14.

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**الصبر عن الشهوة عفّة، وعن الغضب نجدة، وعن المعصية ورع**»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**صيام شهر الصبر، وثلاثة أيّام من كلّ شهر يُذهبنَ ببلابل الصدور**»[2].

وسئل الإمام الباقر عليه السلام: ما الصبر الجميل؟ قال: «**ذلك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس**»[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

أي أنّ الله -تعالى- معهم يوليهم رعايته، ويسدّدهم بتسديده، وينزّل عليهم النصر، ومنْ كان الله معه، فهو قويّ؛ لأنّه مستند إلى ركن حصين، فلا يخيفه شيء.

وقد كان أنبياء الله عليهم السلام يستشعرون هذه المعيّة ويعيشونها بقوّة في أوقات الشدّة: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[4]، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[5].

ولذا، كان الصبر والتقوى عنصرين من عناصر المدد الغيبيّ.

الآية (154)

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾:

(1) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص58.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج4، ص92.
(3) المصدر نفسه، ج2، ص93.
(4) سورة التوبة، الآية 40.
(5) سورة الشعراء، الآية 62.

تتناول هذه الآية حياة الشهداء بعد الموت، مضافاً إلى غيرها من الآيات، ومنها قوله -تعالى-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

ما المقصود من سبيل الله؟

السبيل هو الطريق المسلوكة. وسبيل الله الطريق الموصلة إليه -تعالى-؛ أي إلى ما عنده من نعيم ورضوان؛ وبناءً عليه، فكلّ عمل فيه طاعة لله ويؤدّي إلى مرضاته، فهو سبيل الله، ومنه الجهاد. والمراد من القتل في سبيل الله: أنْ يقتل الإنسان بسبب ذلك، فالمجاهد يتعرّض للقتل بسبب جهاده، والعامل في سبيل الله كذلك. وقد ورد في الروايات المأثورة عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام تطبيق السبيل عليهم عليهم السلام، فعن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال: «**أنا سبيل الله الذي نصّبني للاتّباع بعد نبيّه**»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**والله، نحن السبيل الذي أمركم الله باتّباعه، ونحن، والله، الصراط المستقيم، ونحن، والله، الذين أمر الله بطاعتهم...**»[3].

(1) سورة آل عمران، الآية 169.
(2) الشيخ الطوسيّ، مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد، مصدر سابق، ص757.
(3) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص66.

القتل في سبيل الله

في الرواية عن رسول الله ﷺ في تعيين المراد من القتال في سبيل الله، أنّه قال: «**مَن قاتل لتكون كلمة الله أعلى، فهو في سبيل الله**»[1].

إنّ العامل في طاعة الله يتعرّض للكثير من العقبات، خاصّة إذا أراد أن يقوم بواجبه في إرساء دعائم الدين والعدل والإيمان، والعمل على هداية الناس، وإزالة الانحراف والظلم والجور والطغيان؛ فإنّ أهل الدنيا، وأتباع الشهوات، وشياطين الجنّ والإنس لن يدعوه وشأنه، بل سيواجهونه ويحولون بينه وبين تحقيق مبتغاه؛ فمن هنا تنشأ ضرورة الجهاد والقتال في سبيل الله.

لماذا نفيُ الموت عن الشهيد؟

على الرغم من أنّ الموت هو انقطاع للحياة الدنيوية عن هذا الجسد، وهو أمر مشترك بين الشهيد وغيره، ولكنّ خصوصيّة القتل في سبيل الله دعت إلى تظهير الحياة المستمرّة للمقتول في سبيل الله بعد القتل.

وعليه، فليس المنفيّ هو هذا الموت المتعارف، وإنّما المنفيّ هو الموت التامّ الذي يشمل نواحي الحياة كلّها.

(1) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط، ج4، ص281.

تجرّد النفس

من الثابت فلسفيّاً ودينيّاً أنّ الموت يقع على الجسد دون الروح، فالإنسان عند موته ينتقل من عالم إلى عالم، ومن نشأة إلى نشأة، وللنفس الباقية بعد موت الجسد خصائص الإنسان العقليّة والروحيّة كلّها. وبقاء الإنسان مرتبط ببقاء نفسه لا ببقاء جسده، وهي التي تُحشر يوم القيامة، وتُثاب وتُعاقب، وترتقي في المنازل، وتهوي في المدارك، والجسد بالنسبة إليها كالثوب يُنزع ويُلبس.

عالم البرزخ

ينتقل الإنسان بعد الموت مباشرة إلى عالم البرزخ، وهو ما يطلق عليه عالم القبر تجوّزاً وتسامحاً. وقد تحدّث القرآن الكريم عن الحياة البرزخيّة، كما في قوله -تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[1].

فعالم البرزخ هو مرحلة من الحياة تختلف عن الحياة الدنيويّة والأخرويّة، فهي حياة وسطى برزخيّة بينهما، فيها انتظار، وفيها ثواب وعقاب، لكنّه ليس كثواب الآخرة وعقابها.

وورد في الحديث أنّ أرواح المؤمنين تجتمع بعد الوفاة، وإذا قَدِم عليهم قادم سألوه عمّن تركوه في الدنيا، فإذا قال لهم عن أحدهم إنّه مات ولم يروَا قدومه عليهم قالوا: قد هوى هوى؛ أي علموا أنّه

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 99-100.

من أهل النار[1]. وورد -أيضاً- أنّ المؤمن يُفتح له نافذة إلى الجنّة، فيشمّ ريحها، ويزداد شوقه إليها، والكافر يفتح له نافذة على النار، فيشمّ قَيحها، ويحسّ بلهيبها، ويتمنّى عندئذٍ أن لا تقوم الساعة؛ لما ينتظره عند قيامها[2]، وإلى ذلك تشير الآية في قوله -تعالى-: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[3].

وقد تضافرت الروايات -كما دلّت الآيات- على وجود حياة برزخيّة. وأمّا طبيعتها وكيفيّتها، فهو ما يحتاج إلى كثير من البحث والتدقيق، ولا يسع المقام لذلك.

حياة الشهداء في سبيل الله

إنّ الحياة في البرزخ هي حياة حقيقيّة، وليست حياة معنويّة، كما زعم بعض من الذين لم يتعقّلوا معنى الحياة البرزخيّة؛ ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾، وهذا يقتضي أن تكون للحياة البرزخيّة مراتب، فمن وهب حياته لله أعطاه الله حياة أفضل وأكرم، وهي التي عبّرت الآية عنها.

(1) انظر: الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص244-245.
(2) المصدر نفسه، ص245.
(3) سورة غافر، الآية 46.

فضل القتل في سبيل الله

وردت روايات عدّة تبيّن فضل القتل في سبيل الله -تعالى-، منها:

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**فوق كلّ ذي برٍّ برٌّ، حتّى يقتل الرجل في سبيل الله، فليس فوقه برّ**»[1].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم -أيضاً-: «**أشرف الموت قتل الشهادة**»[2].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: « **إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ - والَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِه - لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ - مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّه**»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**من قتل في سبيل الله، لم يُعرّفه الله شيئاً من سيّئاته**»[4].

بين القتل في سبيل الله والشهادة

من قتل في سبيل الله، فهو شهيد قطعاً، ولكنّ أُطلِق في الروايات عنوان الشهيد على غير المقتول في سبيل الله أيضاً:

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**من مات على حبّ آل محمّد مات شهيداً**»[5].

---

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص348.
(2) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص576.
(3) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، ج2، الخطبة 123، ص2.
(4) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج5، ص54.
(5) الطبري، محمّد بن أبي القاسم، بشارة المصطفى، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1420هـ، ط1، ج23، ص233.

وعن الإمام عليّ عليه السلام: «**المؤمن على أيّ حال مات، وفي أيّ ساعة قبض، فهو شهيد**»[1].

وعن زيد بن أرقم، عن الحسين بن علي عليهما السلام قال: «**ما من شيعتنا إلّا صدّيق شهيد**، قال: قلت: جعلت فداك أنّى يكون ذلك وعامتهم يموتون على فراشهم؟

فقال: **أما تتلو كتاب الله في الحديد:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾[2]، قال: فقلت: كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله عز وجل قط، قال: **لو كان الشهداء ليس إلا كما تقول لكان الشهداء قليلاً**»[3].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**من مات على موالاتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف شهيد، مثل شهداء بدر وأُحُد**»[4].

الآية (155)

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

البلاء: هو الامتحان والاختبار بالمكروه والمحبوب، وإنْ كان

(1) المجلسي، العلاّمة محمّد باقر بن محمّد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2، ج65، ص140.
(2) سورة الحديد، الآية 19.
(3) البرقي، أحمد بن محمّد بن خالد، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1370 - 1330 ش، لا. ط، ج1، ص163-164.
(4) العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج79، ص173.

استعماله في المكروه أغلب، قال -تعالى-: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾[1]، ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[2].

والإنسان مخلوق للبلاء، وهو مقدّمة لتحديد مصيره: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾[3].

وروي عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال: «**لا تفرح بالغناء والرخاء، ولا تغتمّ بالفقر والبلاء، فإنّ الذهب يجرّب بالنار، والمؤمن يجرّب بالبلاء**»[4].

فالبلاء يكشف جوهر الإنسان، ويظهر قوّة إيمانه إنْ كان مؤمناً، ويكشف ضعفه إنْ لم يكن ثابت الإيمان، وهو يكشف مقدار تمسّك الإنسان بالطاعة في مختلف الظروف، وفي حالَي الشدّة والرخاء، فيستحقّ بذلك منزلة أهل التقوى والقرب، وتشمله الرحمة الإلهيّة والرضوان.

وعليه، ينبغي أن يتلقّى المؤمن البلاء برضى وتسليم، وبصبر وثبات، ولا يقف منه موقف المعترض والجازع والمتبرّم، مهما كان البلاء شديداً، ومهما كان صعباً، فلا بدّ من أنّه سينكشف، فالعاقل من يحرص على انكشافه عن مزيد من الرضى بقضاء الله، والفوز

(1) سورة الفجر، الآيتان 15-16.
(2) سورة الأنبياء، الآية 35.
(3) سورة الملك، الآية 2.
(4) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص520.

برضوانه، وعمق الإيمان به، وقوّة اليقين، وذلك بدلاً من انكشافه عن خلل في التقوى والصبر، ونقص في الإيمان، وشماتة الشياطين.

وليس البلاء دليل غضب إلهيّ على عبده، بل هو رحمة؛ لأنّه يفتح أمام العبد باب الحصول على الدرجات والثواب الجزيل، وهو يشتدّ على المؤمن ويضعف على الكافر، وذلك لما ورد في الروايات المأثورة، منها:

عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا حاجة لله فيمن ليس له في ماله وبدنه نصيب**»[1].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم -أيضاً-: «**إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه**»[2].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: «**إذا رأيت ربّك يوالي عليك البلاء فاشكره، وإذا رأيت ربّك يتابع عليك النعم فاحذره**»[3].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة**»[4].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**قل عند كلّ شدّة: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، تكفها**»[5].

---

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص256.
(2) البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق: محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1410 - 1990م، ط1، ج7، ص145.
(3) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص136.
(4) السبزواري، الشيخ محمّد بن محمّد، معارج اليقين في أصول الدين، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، 1410 - 1993م، ط1، ص310.
(5) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول، مصدر سابق، ص174.

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**ادفعوا أمواج البلاء عنكم بالدعاء**»[1].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**بالدعاء يُستدفع البلاء**»[2].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمحنتهم؛ لتسلم بها طاعاتهم، ويستحقّوا عليها ثوابها**»[3].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الأمثل، فالأمثل**»[4].

وعنه عليه السلام -أيضاً-: «**ما من مؤمن إلّا وهو يذكر كلّ أربعين يوماً ببلاء؛ إمّا في ماله أو في ولده أو في نفسه فيؤجر عليه، أو همّ لا يدري من أين هو**»[5].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «**لن تكونوا مؤمنين حتّى تعدّوا البلاء نعمة، والرخاء مصيبة؛ وذلك أنّ الصبر عند البلاء أعظم من الغفلة عند الرخاء**»[6].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

يحرص الإنسان على الأمن والعافية في نفسه وأهله، وعلى نعومة

(1) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص93.
(2) المصدر نفسه، ص187.
(3) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام، مصدر سابق، ص23.
(4) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص659.
(5) السبزواري، معارج اليقين في أصول الدين، مصدر سابق، ص312.
(6) المصدر نفسه، ص313.

عيشه. وهذه الأمور تقع موارد للبلاء عندما يطرأ عليها النقص، كما تقع موارد للبلاء عندما تكتمل، بحيث يمتحن الإنسان في شكره لربّه وتذكّره للنعم بدلاً من غفلته عنها.

وتأتي هذه الآية في سياق وعد المؤمنين بالبلاء بالنقص؛ إذ الخوف نقص في الأمن، والجوع نقص في مستلزمات المعيشة، وما بعدها تأكيد عليها أو بيان لأسباب الخوف والجوع.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

عن الإمام عليّ عليه السلام: «**عند تناهي البلاء يكون الفرج**»[1]، فينبغي الصبر والتحمّل.

وقد ورد الحثّ على الصبر عند البلاء كثيراً في الروايات المأثورة، فعن الإمام عليّ عليه السلام: «**وإنِ ابتليتم فاصبروا**»[2]، «**خير الناس: من إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا ظُلم غفر**»[3]، «**إنِ ابتلاكم الله بمصيبة فاصبروا**»[4]، «**عليك بالصبر في الضيق والبلاء**»[5].

وترك الصبر لا يدفع البلاء، بل ربّما يزيده؛ فعن الإمام عليّ عليه السلام: «**من عظّم صغار المصائب، ابتلاه الله بكبارها**»[6].

(1) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، منشورات محمّد علي بيضون - دار الكتب العلمية، 1424هـ - 2003م، ط3، ج4، ص133.
(2) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، ج1، الخطبة 98، ص191.
(3) الليثيّ الواسطيّ، عيون الحكم والمواعظ، مصدر سابق، ص238.
(4) المصدر نفسه، ص161.
(5) المصدر نفسه، ص335.
(6) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، ج4، الحكمة 448، ص104.

وليس المقصود بالصبر هو ترك السعي لدفع البلاء ومعالجة الواقع الصعب، وإنّما المراد أن لا يدفع ذلك الإنسان إلى اعتماد طرق وأساليب فيها معصية أو اتّهام للمولى -عزّ وجلّ- بما لا يجوز اتّهامه به، كالاعتراض على حكمه، والحقد عليه، واتّهامه بالظلم مثلاً.

وقد فسّرت الآية اللاحقة المراد من الصابرين.

الآية (156)

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾:

المصيبة

هي النائبة والنازلة التي تنزل بالإنسان، أو بالقوم تصيب منهم موضعاً من أبدان، أو أرزاق، أو ما شابه، وهي مأخوذة من فعل «أصاب» الذي لا يختصّ بالنوائب، بل يعمّ كلّ نازل من خير أو سوء، لكنْ غلب استعمال المصيبة (هذا الاشتقاق) في النائبة والشدّة والنقص.

والمصائب التي تنزل بالناس على قسمين:

1. مصيبة يتسبّب بها الإنسان نفسه، بسبب ذنب أو تقصير، قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1]، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[2].

(1) سورة الشورى، الآية 30.
(2) سورة الروم، الآية 41.

2. مصيبة البلاء لإعطاء الأجر ورفع الدرجة، فعن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «**المصائب مفاتيح الأجر**»[1].

وروي أنّه كتب رجل إلى الإمام أبي جعفر عليه السلام يشكو إليه مصابه بولده، فكتب إليه: «أما علمت أنّ الله يختار من مال المؤمن ومن ولده أَنْفَسَهُ ليؤجره على ذلك؟»[2].

ومهما عظمت المصيبة، فهي هيّنة في مقابل مصيبة الإنسان بدينه: سئل أمير المؤمنين عليه السلام أيّ المصائب أشدّ؟ قال: «**المصيبة بالدين**»[3].

وكان الإمام أبو عبد الله عليه السلام يقول عند المصيبة: «**الحمد لله الذي لم يجعل مصيبتي في ديني...**»[4].

وقد أشارت هذه الآية إلى الموقف المناسب الذي ينبغي اتّخاذه عند المصيبة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ لأنّ الإنسان مخلوق لله ومملوك له، وليس للملوك أن يعترض على إرادة مالكه، وما عندنا من حياة، وقدرة، وجوارح، ونِعَم، وأبناء، وغير ذلك، كلّها لله ومن الله -تعالى-، أنعم بها علينا، وأَذِن لنا في التصرّف في بعض ملكه، فإذا استردّ عطاياه، وحجب بعض ما أنعم به، فليس للعبد أن يغضب، ولا يفرق، ولا يجزع، بل يسلّم أمره تسليمَ العبد للمولى.

(1) الحلواني، الحسين بن نصر، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، إيران - قم المقدسة، 1408هـ، ط1، ص72.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص218.
(3) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص479.
(4) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص262.

فالملك الحقيقيّ للمولى، وملك غيره لا يعدو كونه إذناً في التصرّف، لا يُخرج الأشياء عن ملكوته. فإذا اعتقد الإنسان ذلك حقيقة، هانت عليه المصيبة، واستعان على تحمّلها بالعزاء والصبر.

روي أنّه سمع أمير المؤمنين عليه السلام إنساناً يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، فقال: «**قولنا ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ إقرارله منّا بالملك، وقولنا: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرارعلى أنفسنا بالهلاك**»[1].

فلا ينفع المُصاب استعظام مصابه؛ لأنّ من عظّم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها -كما تقدّم-، فإذا عجز عن الصبر مع الصغار، فكيف يصبر مع الكبار!

وليس المراد في الآية من القول مجرّد التلفّظ بـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، وإنّما القول الصادق المعبّر عن الاعتقاد، وعن القناعة القلبيّة.

الآية (157)

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾:

تبيّن هذه الآية النتيجة المرجوّة للصبر على المصاب، وأيّ نتيجة أعظم من هذه النتيجة:

1 - صلوات من ربّهم ورحمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾[2].

(1) الشريف الرضيّ، نهج البلاغة، مصدر سابق، الحكمة 99، ج4، ص22.
(2) سورة الأحزاب، الآية 43.

روي أنّه سُئِل الإمام أبو الحسن عليه السلام عن معنى صلاة الله، وصلاة ملائكته، وصلاة المؤمنين؟ قال: «**صلاة الله رحمة من الله، وصلاة الملائكة تزكية منهم له، وصلاة المؤمنين دعاء منهم له**»[1].

فصلوات الله -تعالى- هي لطف وعناية ورعاية ورحمة، ويدلّ عطف الرحمة على الصلوات على أنّ الرحمة نتيجة للصلوات بمعناها المتقدّم.

2 - الهداية: تكمن الهداية الحقيقة في أن يعرف الإنسان ربّه، ويسلك الطريق المؤدّية إليه لا إلى سواه. وما تقدّم يكشف عن ذلك بلا شكّ. وقد استُدلّ على هذه الهداية عمليّاً بالاختبار والابتلاء، وليس بالكلام.

روي أنّ أمّ عقيل كانت امرأة في البادية، فنزل عليها ضيفان، وكان ولدها عقيل مع الإبل، فأُخبرت بأنّه ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر، فقالت المرأة للناعي: انزل واقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه، وقرّب إلى القوم الطعام، فجعلوا يأكلون ويتعجّبون من صبرها، قال الراوي: فلمّا فرغت خرجت إلينا وقالت: يا قوم هل فيكم من يحسن من كتاب الله شيئاً؟ فقلت: نعم، قالت: فاقرأ عليّ آيات أتعزّى بها على ولدي، فقرأت: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، إلى قوله ﴿ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ فقالت: السلام عليكم،

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، ثواب الأعمال، تقديم: السيد محمّد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، إيران - قم، 1368 ش، ط2، ص156.

ثمّ صفّت قدميها وصلّت ركعات، ثمّ قالت: اللهمّ إنّي فعلت ما أمرتني، فأنجز لي ما وعدتني، ولو بقي أحد لأحد لبقي محمّد ﷺ لأمّته، فخرجت[1].

الآية (158)

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

وردت هذه الآية في سياق مستقلّ عن الآيات السابقة والآيات اللاحقة، والله أعلم.

الصفا

طرف جبل أبي قبيس المواجه لركن الحجر الأسود. وفي الأصل هو الحجر الصلد الأملس الصافي الذي ليس فيه تراب. ويقال إنّ أحجار الكعبة مأخوذة من هذا الجبل. المروة: هي طرف أو أصل جبل قيقعان، وهو واقع في الجهة الشماليّة الشرقية من المسجد. وبين الصفا والمروة وادٍ يقع فيه المسعى، والآن بعد أن سُوّي الطريق بين الجبلين صارت المسافة ما يقرب من 400م (قيل: 394، وقيل: 405).

ويُعدّ السعي بين الصفا والمروة من مناسك الحجّ والعمرة. وقد ورد في فلسفة تشريعه روايات عدّة، منها: ما روي عن الإمام أبي

(1) انظر: العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج79، ص153-154.

عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**جُعل السعي بين الصفا والمروة مذلّة للجبّارين**»[1].

وتوضيح ذلك: أنّ الحاج والمعتمر فرض عليه أن يسير ذهاباً وإياباً، ويهرول في بعض هذه المسافة، ويمشي في بعضها الآخر، وهو لا يجد في ذلك أيّ هدف محسوس، وليس ذلك إلّا طاعة لله. ومن الحجّاج والمعتمرين مَن هم مِن ذوي الشأن، فلا يُميَّز بين كبير وصغير، ولا حاكم ولا محكوم، ولا جبّار ولا ذليل.

الشعائر

جمع شعيرة، وهي العلامة. وشعائر الحجّ هي أعماله، من السعي، والطواف، والهدي؛ سمّيت بذلك لأنّها معالم وعلامات، يمثّل كلّ منها شعاراً يدلّ على الله، ويرشد إليه، ويقود إلى سبيله.

وشعائر الله هي كلّ ما أقامه الله -تعالى- للناس لعبادته ومعرفته، وهي أشبه بشعارات أو أعلام الطريق التي تدلّ على المقصد أو المسافة، فهي علامات تقود المسافر إلى الهدف، وكذلك العبادات كلّها.

والصفا والمروة من جملة شعائر الحجّ التي أمر بالسعي بينها، تعبّداً وطاعة.

وقد ورد إطلاق الشعائر في القرآن على البُدْن التي تُهدى في الحجّ، وعلى مجمل أعمال الحجّ، والمقصود منها في هذه الآية أماكن الحجّ:

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج4، ص434.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾[1]، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[3]، والمقصود حرمة الصيد في الإحرام أو في الحرم، ومنه سمّي المشعر الحرام: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[4].

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾:

فُرِض السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط في أعمال الحجّ والعمرة، شرط البدء بالصفا؛ لأنّ الله بدأ به، والانتهاء عند المروة؛ لأنّ الله ختم بها في الآية. وقد وقع القول في معنى الآية ودلالتها على الإباحة أو الوجوب. وبيان ذلك:

﴿لَا جُنَاحَ﴾:

معناه لا إثم؛ لأنّها مِن جنح إذا مال عن الحقّ فأثم. ونفي الجناح نفي للإثم والمؤاخذة، مثل: لا بأس. ودلالته في الأصل على الإباحة، ومع ذلك، فإنّ السنّة الشريفة دلّت على فرض السعي ووجوبه، فكيف ذلك؟

أورد المؤرّخون وأيّدته الروايات، أنّ المشركين كانوا قد وضعوا على الصفا صنماً، وعلى المروة صنماً آخر، وجعلوا سعي الحجيج تقرّباً من الصنمين. وقيل إنّ رسول الله ﷺ عندما اعتمر المرّة

(1) سورة الحج، الآية 36.
(2) السورة نفسها، الآية 32.
(3) سورة المائدة، الآية 2.
(4) سورة البقرة، الآية 198.

الأولى في السنة السابعة للهجرة قبل فتح مكّة؛ بناءً على ما جرى الاتّفاق عليه مع أهل مكّة في صلح الحديبيّة فيما أطلق عليه اسم عمرة القضاء، قيل إنّ رسول الله ﷺ طلب منهم أن يرفعوا هذه الأصنام لأيّام حتّى يقضوا مناسكهم، وأنّ بعضهم تأخّر حتّى أعاد المشركون أصنامهم إلى مواضعها؛ فتحيّر في أمره، وكيف يجوز أن يسعى بعد وضعها، فنزلت الآية لتنفي الحرمة المتوهّمة، فهي في مقام دفع توهّم الحظر[1].

وقيل: إنّ بعض المسلمين توهّم أنّ السعي في الجاهلية هو ممّا زاده المشركون لأجل أصنامهم، وأنّه ليس من مناسك الحجّ، فجاءت الآية لتثبت أصل شرعيّة الطواف.

وعلى أيّ وجه، فإنّ السنة القطعيّة دلّت على الوجوب في هذه الآية، كما في آية القصر، حيث قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[2].

وقد ورد التعبير بـ﴿لَا جُنَاحَ﴾ في القرآن 25 مرّة، فيها موردان فقط في الوجوب، والباقي في الإباحة.

روي عن زرارة ومحمّد بن مسلم أنّهما قالا: قلنا لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر، كيف هي، وكم هي؟ فقال: «**إنّ الله -عزّوجلّ- يقول:** ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، **فصار التقصير واجباً، كوجوب**

(1) انظر: الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص445.
(2) سورة النساء، الآية 101.

التمام في الحضر، قالا: قلنا إنّما قال الله -عزّ وجلّ-: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، ولم يقل افعلوا، فكيف وجب ذلك، كما أوجب التمام في الحضر؟ فقال عليه السلام: أَوَليس قد قال الله -عزّ وجلّ- في الصفا والمروة: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾؛ ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- ذكره في كتابه، وصنعه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، فكذلك التقصير في السفر، صنعه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وذكره الله -تعالى- في كتابه»[1].

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾:

الطوع مقابل الكره؛ قال -تعالى-: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[2]، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[3]، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[4]، ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ﴾[5].

والتطوّع من الطاعة والانصياع مقابل الكراهيّة والتمرّد والعصيان؛ وبناءً عليه، فهي أعمّ من الطاعة في الندب والطاعة في الفريضة، ومثله قوله -تعالى-: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾[6] في مورد الصوم.

(1) الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1414هـ، ط2، ج1، ص434.
(2) سورة آل عمران، الآية 83.
(3) سورة الرعد، الآية 15.
(4) سورة فصلت، الآية 11.
(5) سورة التوبة، الآية 53.
(6) سورة البقرة، الآية 184.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

من صفاته -تعالى- أنّه شاكر، فعلى الرغم من أنّ العبد لا يفعل شيئاً من الخير ومن الأعمال الصالحة، إلّا بتوفيق منه -تعالى- وإمداد وتمكين وإنعام، فليس من شيء يستحقّ العبد عليه أن يشكره ربُّه، ولكنّ الله -تعالى- لكرمه ورحمته منح عباده القدرة والاختيار، فإذا أطاعوه شكرهم، وأعطاهم الجزاء الأوفى: «ومن شكرك يشكر الشاكرون»[1].

الآية (159)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾:

تكرّر في القرآن الكريم ذمّ كتمان الحقّ؛ وذلك لأنّ رحمة الله -تعالى- اقتضت إرسال الرسل عليهم السلام، وإنزال الكتب لهداية البشر، وإرشادهم إلى الصواب، وتعريفهم بالحقيقة. والكتمان يقطع هذه الرحمة، ويَحُوْلُ دون وصولها إلى أهلها ومن هو بحاجة إليها.

ويمكن أن يكون الداعي إلى الكتمان أحد أمرين: إمّا إرادة احتكار المعرفة، فلا يريد الكاتم لها، الحاصل عليها، أن تصل إلى غيره؛ ليبقى متفرّداً بالوصول إلى نتائجها. وهنا لا يفرّق بين احتكار الأفراد واحتكار المجموعات. وقد يكون المراد من الاحتكار هو الإضلال

(1) العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج99، ص56.

والتحريف؛ لأنّ الإنسان يجد في الحقيقة ما لا يحبّ الالتزام به، فيمارس الانحراف، ولا يريد أن يحتجّ عليه أحد بها؛ فيكتم ذلك ويخفيه.

وقد أخذ الله الميثاق على بيان الحقيقة، قال -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1]؛ وهو يبدأ بالأنبياء عليهم السلام، وينتهي عند كلّ فرد نال طرفاً من المعرفة وحظّاً منها، ولو كان من عامّة الناس.

ويتجاوز التأثير السلبيّ للكتمان شخصَ الفاعل إلى عامّة الناس، فهو يتعدّى على المشروع الإلهيّ لهداية البشر من جهة، فيعرقل نجاحه، ويحرم العباد من المعرفة والهداية، ويظلم الحقيقة نفسها؛ لأنّ إخفاءها يؤدّي إلى الجهل والضلال، ويفسح المجال أمام الشبهات والانحرافات.

في حين أنّ إظهار الحقّ وتعريف الناس به يسهم مساهمة مباشرة في دفع المجتمع نحو كمالاته وبنائه على أسس ثابتة.

ويكون كتمان الحقّ (البيّنات والهدى) أقبح؛ عندما يأتي بعد مجيء الرسل عليهم السلام، ونزول الكتاب، وإتاحة وسائل الهداية كلّها. فلو كان الإنسان هو الذي اكتشف الحقيقة، لكان من الواجب نشرها والتعريف بها وعدم احتكارها، فكيف إذا كانت بدلالة من الباري -عزّ وجلّ- وتعريف من الرسل عليهم السلام! ولذلك عقّبت الآية: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾.

(1) سورة آل عمران، الآية 187.

وورد في بعض الروايات حرمة كتمان العلم، ووجوب إظهار الحقّ، ومنها:

ما روي عن رسول الله ﷺ: «**إذا ظهرت البدع في أمّتي، فليظهر العالِم علمَه، فمن لم يفعل، فعليه لعنة الله**»[1].

وعنه ﷺ -أيضاً-: «**من سُئِل عن علم يعلمه، فكتم أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**»[2].

وعن الإمام عليّ عليه السلام: سُئِل عن خير خلق الله بعد أئمّة الهدى ومصابيح الدجى، قال: **العلماء إذا صلحوا**.

قيل: فمن شرّ خلق الله بعد إبليس، وفرعون، وثمود، وبعد المسمّين بأسمائكم، وبعد المتلقّبين بألقابكم، والآخذين لأمكنتكم، والمتأمرين في ممالككم؟ قال: **العلماء إذا فسدوا، هم المظهرون للأباطيل، الكاتمون للحقائق؛ وفيهم قال الله -عزّ وجلّ-:** ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾[3]، [4].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾:

نتيجة كتمان البيّنات والهدى هي مواجهة لعنة الله ولعنة اللاعنين.

واللعن: معناه الطرد والإبعاد من الخير. لعنه: طرده وأبعده وأخزاه وسبّه. ولعنه الله: عذّبه، ولعلّ ذلك من جهة طرده من

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص54.
(2) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص447.
(3) سورة البقرة، الآية 159.
(4) الطبرسيّ، الاحتجاج، مصدر سابق، ج2، ص264-265.

رحمته. ولعلّ اللعن في الآخرة يلزم منه العذاب، وفي الدنيا يلزم منه سلب التوفيق، والحكم عليه بالهلاك. ولعن الناس: الدعاء عليه باللعنة وشتمه وسبّه.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾:

لأنّهم لا يستحقّون رحمته ورأفته ولطفه، بل يستحقّون غضبه وعذابه.

﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾:

الذين لعنوا بسببهم، أو الذين يعملون بأمره -تعالى-، ويحبّون أن ينتشر الهدى، ويجاهدون في سبيل الله، فهم يدعون على كلّ من يعمل على إخفاء الحقيقة، ومنعها من الوصول إلى أهلها.

ويظهر من بعض كتب اللغة، أنّ اللعن هو أحد أنواع السبّ، ومهما يكن، فالسؤال المطروح: هل يُعدّ اللعن وسيلة مشروعة للتعبير عن الرفض والمخالفة والتبرّؤ؟

وقد ورد لعن الله -تعالى- للكافرين في مواضع عدّة من القرآن الكريم، منها:

1. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾[1].
2. ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَـٰقَهُمۡ لَعَنَّـٰهُمۡ﴾[2].
3. ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَـٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾[3].

(1) سورة الأحزاب، الآية 64.
(2) سورة المائدة، الآية 13.
(3) سورة النساء، الآية 47.

4. ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[1].
5. ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[2].
6. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[3].
7. ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[4].
8. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾[5].
9. ﴿هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[6].

وقد ورد اللعن في مواضع كثيرة أخرى، حيث وردت لعنة الله على العناوين الآتية: (المشركين، الكافرين، بني إسرائيل، قاتل النفس المحترمة، الشيطان، المنافقين، الظالمين، الذين يرمون المحصنات...).

وعطفت لعنة الملائكة والناس أجمعين في بعض الآيات على لعنته -تعالى-، قال -تعالى-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[7].

وتجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم طبّق اللعن على بعض الناس بعناوينهم الكلّيّة، ولم يذكرهم بأشخاصهم. والذي يدور حوله النقاش هو لعن أفرادٍ بأعيانهم وأشخاصهم، ومع القطع بانطباق العنوان عليهم، فلا شكّ في أنّه لا إشكال فيه من الناحية

(1) سورة النساء، الآية 118.
(2) سورة المائدة، الآية 60.
(3) سورة البقرة، الآية 88.
(4) سورة النساء، الآية 46.
(5) السورة نفسها، الآية 52.
(6) سورة التوبة، الآية 68.
(7) سورة آل عمران، الآية 87.

الشرعيّة بالعنوان الأوّليّ، لكنّ إذا أدّى ذلك إلى ضررٍ بالمذهب، أو بأصحاب المذهب، أو أدّى إلى زيادة الغيّ والانحراف عند أتباعهم، فهو مشكل فيما لو أُظهر وأُعلن.

الآية (160)

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

الآية تجمع بين أمور ثلاثة: التوبة، والإصلاح، والتبيين. أمّا التوبة، فهي رجوع عن المعصية، وعودة إلى دائرة الطاعة، وهي تستلزم الندم على ما مضى، والعزم على عدم العودة؛ وأمّا الإصلاح، فلأنّ المعصية تُحدِث خللاً وفساداً وانحرافاً لا بدّ من إصلاحه، فيكون الإصلاح دليلاً على صدق الإرادة في التوبة، وإلّا فما معنى التوبة مع عدم المبادرة العمليّة إلى إصلاح ما فسد؟ وإذا كان الفساد متعلّقاً بالعقيدة والموقف العمليّ، فالإصلاح يكمن في العمل على إعادة الأمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها، وتصحيح الفاسد من المعتقد، والخطأ من الرؤية، والباطل من العمل، وما هدر من الحقّ، وأمثال ذلك. وأمّا التبيان، فإظهار ما كان قد كُتِم، وبيان ما يحتاج إلى بيان وَفق الأصول.

فإذا تاب العاصي صادقاً في توبته، وأصلح ما أفسدته معصيته، وبيّن ما كان قد كتم تبيانه، فإنّ الله سوف يقبل توبته؛ لأنّه توّاب رحيم، فالله يحبّ التوبة، وهو يفرح بتوبة عبده كما يفرح الإنسان عندما يجد ما كان قد افتقده.

وصيغة «توّاب» تعني كثير التوبة.

وهو رحيم بعباده، ومن مظاهر رحمته التجاوز عن المذنبين إذا تابوا.

الآية (161)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾:

من المعلوم أنّ الأمور بعواقبها؛ ولذلك حصرت هذه الآية والآية اللاحقة اللعنة والعذاب الخالد بالذين ماتوا وهم كفّار؛ لأنّ الكفر ينفي أيّ إمكانية لدخول الجنّة، وهو يستلزم الخلود في اللعنة، واستمرار العذاب.

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المقصود من الكافر في هذه الآية هو خصوص المعاند والمتعنّت، وأمّا الذي لم يتبيّن الحقّ ولم يعرفه، فهو مستضعف وأمره إلى الله[1].

ولعلّ مراده الجاهل القاصر وغير المقصّر؛ أي الذي لم يصله الرسول.

الآية (162)

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾:

أي دائمين في اللعنة التي تتبدّل عليهم عذاباً؛ لأنّ اللعن

(1) انظر: العلامة الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج1، ص390.

إبعاد من الرحمة، وإيجاب للعقاب. والعقاب يكون في النار على وتيرة واحدة، فلا يخفّف أحياناً، ويشتدّ أحياناً، ولا يمهلون فيها للاعتذار، كما في قوله -تعالى-: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1]، أو لا يؤخّر عنهم العذاب، بل عذابهم حاضر: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

الآية (163)

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

هذه آية توحيديّة فيها تنصيص وتأكيد واستدلال في آن معاً.

الإله واحد: وليس المراد الوحدة العدديّة التي يمكن أن يكون للواحد فيها ثانٍ وثالث، ولكنّ المراد هو الوحدة الأحديّة مقابل التعدّد، فهذه الصيغة يفهم منها نفي الآلهة المزعومة، وإثبات الإله الواحد الأحد. وإضافته إلى المخاطبين، وهم كلّ عاقل، يفيد شموليّة الألوهيّة للناس كلّهم، حتّى لا يكون ثمّة إله لهؤلاء وإله لأولئك.

لا إله إلّا هو: تأكيد للجملة الثانية بطريقة حصريّة متناهية في نفي الشريك المتوهَّم؛ لأنّ «لا» نافية للجنس، وإذا جاءت بعدها «إلّا» أفادت الاستثناء من النفي ليثبت ما بعدها حصراً، فالمنفي مطلق الآلهة المتوهَّمة، والمثبت هو الإله الواحد الأحد الذي له الوجود وغيره محال.

الرحمن الرحيم: تقدّم تفسيرهما في سورة الفاتحة. وذِكْر هاتين

(1) سورة المرسلات، الآية 36.
(2) سورة التوبة، الآية 49.

الصفتين في هذه الآية دون غيرهما من الصفات الإلهيّة؛ لميزة جامعيّتهما وسبقهما لها.

الآية (164)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

روي عن هشام بن الحكم، أنّه قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «**يا هشام، إنّ الله -تبارك وتعالى- أكمل للناس الحجج بالعقول، ونصر النبيّين بالبيان، ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة، فقال:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾»[1].

الآية (165)

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص13-14.

﴿ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾:

تتحدّث هذه الآية والآيتان اللاحقتان عن حال أهل الشرك.

﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾:

الندّ: المِثل المنازع. والله -تعالى- لا ندّ له ولا منازع ولا شبيه، لكنّ بعض الناس يتّخذون أنداداً من دون الله.

وتفيد الاستعمالات القرآنيّة لـ(من دون) معنى المقابلة، كما في قوله -تعالى-: ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾[1]، ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾[2]، ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[5]، ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[6]، ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾[7]، ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا﴾[8].

وقد ورد ذِكْر الندّ في القرآن الكريم في ستّة مواطن، وكلّها أضافت الأنداد لله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[9]، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[10]، ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾[11]، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[12]،

(1) سورة البقرة، الآية 94.
(2) سورة الجمعة، الآية 6.
(3) سورة آل عمران، الآية 28.
(4) سورة الأحزاب، الآية 50.
(5) سورة آل عمران، الآية 64.
(6) السورة نفسها، الآية 79.
(7) سورة الأعراف، الآية 81.
(8) سورة الفتح، الآية 27.
(9) سورة البقرة، الآية 22.
(10) سورة إبراهيم، الآية 30.
(11) سورة سبأ، الآية 33.
(12) سورة الزمر، الآية 8.

﴿وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾[1]، إلاّ هذه الآية، حيث قال -تعالى-: ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾.

و(دون) في الآية معناها (غير)، فكأنّه يريد أن يقول: إنّهم يتّخذون في مقابله من يجعلونه نظيراً له وندّاً في العبادة، أو المحبّة، أو نسبة التدبير والخلق إليهم.

وذُكِرَ في المراد بالأنداد وجوه، هي:

1. الأصنام التي عبدوها، ولكنّه بعيد؛ لأنّ الضمير في قوله -تعالى- ﴿يُحِبُّونَهُمۡ﴾ يعود على عاقل، والأصنام ليست كذلك: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، أضف إلى ذلك أنّهم لم يكونوا يحبّون الأصنام كحبّ الله.
2. أئمّة الظلم والجَور؛ لِما روي عن الإمام الباقر عليه السلام[2]. والوجه فيه: أنّ الولاء والطاعة والارتباط الذي يبديه بعض الناس تجاه زعمائهم، ولو كانوا من أئمّة الظلم يتجاوز ارتباط الإنسان بربّه وطاعته له، وحتّى الارتباط القلبيّ والعاطفيّ، وخاصّة إذا كان يعيش على مائدته، ويغفل عن رزق الله له وعطاءاته له.

ولذلك ذهب بعض الصوفيّة والعارفين إلى أنّ كلّ شيء شغل قلب الإنسان سوى الله -تعالى- فقد جعله ندّاً له، إلّا ما يرى من خلاله عظمة الخالق، فيشتغل به ويقوده إليه، وقالوا هو المراد من قوله -تعالى-: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3].

(1) سورة فصلت، الآية 9.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص374.
(3) سورة الجاثية، الآية 23.

﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾:

الحبّ ميل قلبيّ، يشتدّ ويضعف، ويُحدث ارتباطاً عاطفيّاً؛ تبعاً لذلك، وهو إمّا حب للّذّة، وإمّا حبّ للكمال والجمال. وحب اللذّة يرجع إلى حبّ الذات؛ لأنّ الساعي نحو اللذّة يسعى لإرضاء نفسه وكسب اللذّة لها، وأمّا محبّ الكمال فهو يعشق الكمال بذاته، ولو لم يجد اللذّة من خلاله، بل ربّما قاده ذلك إلى التفاني فيه.

وحبّ الإنسان لربّه قد يكون متعلّقاً بثوابه وخوفاً من عقابه، فهو لجلب اللذّة ودفع الألم، وقد يكون متعلّقاً بذاته -تعالى- بقطع النظر عن ثوابه وعقابه، بل رغبة في التعلّق بكماله.

روي أنّه ورد في صحيفة إدريس عليه السلام: «**طوبى لقوم عبدوني حبّاً، واتّخذوني إلهاً وربّاً، وسهروا الليل، ودأبوا النهار طلباً لوجهي، من غير رهبة ولا رغبة، ولا لنار ولا جنّة، بل للمحبّة الصحيحة، والإرادة الصريحة، والانقطاع عن الكلّ إليّ...**»[1].

والإيمان الخالص هو الحبّ البعيد عن الرغبة في اللذّة، وهو ما يعبّر عنه الحديث المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يمحّض رجل الإيمان بالله؛ حتّى يكون الله أحبّ إليه من نفسه، وأبيه، وأمّه، وولده، وأهله، وماله، ومن الناس كلّهم**»[2].

وقد أجرت الآية مقارنة بين حبّ هؤلاء للأنداد الذين اتّخذوهم من دون الله، وحبّ الذين آمنوا لله -تعالى، فقالت: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

(1) العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج92، ص467.
(2) ابن طاوس، السيد علي بن موسى، فلاح السائل، لا. ن، لا. م، لا. ت، لا. ط، ص101.

﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾، فهل المراد أنّهم أشدّ منهم حبّاً لله؟ أي حبّهم لله أشدّ من حبّ هؤلاء لأندادهم، أو المراد أنّ المؤمنين أشدّ حبّاً لله من حبّ هؤلاء لله؟ باعتبار أن متّخذي الأنداد لم ينفوا حبّ الله.

ووجه تشبيه حبّهم لأندادهم بحبّ الله -عزّ وجلّ-، هو أنّ حبّهم للأنداد يماثل حبّهم لله -عزّ وجلّ-، هذا إذا فرضنا أنّ المشرك يعرف الله -تعالى-، ويقرّ به ويحبّه، أو أنّ حبّهم لله ينبغي أن يكون كحبّهم لأندادهم، أو كحبّ المؤمنين لله.

ولا ينبغي للمؤمن أن يدخل إلى قلبه حبّ غير الله -تعالى-، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**القلب حرم الله، فلا تُسكن حرم الله غير الله**»[1].

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾:

فلا حول ولا قوّة إلّا بالله، ولا مفرّ من عذاب الله -تعالى- إلّا بطاعته وتحقيق رضاه، ولا مفرّ منه إلّا إليه.

الآية (166)

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾:

يعمل الظالمون والجائرون في الدنيا على استمالة الناس إليهم، وكسب تأييدهم ودعمهم، ويسعون لاستعبادهم وتطويعهم؛ ليحقّقوا مآربهم من خلالهم، وعلى أكتافهم، حتّى إذا جاءهم

(1) السبزواري، معارج اليقين في أصول الدين، مصدر سابق، ص518.

الموت، وقامت قيامتهم، ورأوَا مصيرهم، تبرّأوا من أتباعهم، وتخلّوا عنهم، وحاولوا التنصّل من العلاقة معهم؛ لأنّها لم تعد تفيدهم، بل ربّما صارت وبالاً عليهم؛ لأنّهم عندما أضلّوهم تحمّلوا جزءاً من تبعات ما سنّوه من سنّة سيّئة.

الآية (167)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

وفي المقابل، يندم المتَّبِعون على اتّباعهم لهم، ويتمنّون أن تعود الكرّة لهم ليتبرّأوا من زعمائهم ويتركوهم وشأنهم. وهذه الأمنية لن تتحقّق، ولن يعيد الله -تعالى- الناس بعد اكتمال مرحلة الامتحان والاختبار.

فالنتيجة هي زيادة في الحسرات، ولا مفرّ من مواجهة المصير الذي أراده الله لهم.

الآية (168)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾:

الخطاب في هذه الآية موجّه إلى الناس كلّهم، وفيه دلالة على أنّ الإباحة عامّة تشمل أهل الإيمان وغيرهم. وورود الآية في سورة مدنيّة دليل على عدم اختصاص هذا النوع من الخطاب بالسور المكّيّة.

والأمر في الآية ليس للوجوب، وإنّما للإباحة، وتقريب ذلك في احتمالين:

1. إنّ الأصل في الأمور الحرمة من الناحية العقليّة، وذلك بناءً على مبنى حقّ الطاعة الذي شيّده الشهيد السيّد الصدر، وبيانه: أنّ الإنسان وما حوله في الدنيا من مخلوقات وموجودات مملوكة لخالقها، ولا ينبغي عقلاً أن يتصرّف العبد بملك مولاه دون إذنه. فهذه الآية وآيات أخرى أباحت التصرّف في ما في الأرض، وأذنت في ذلك.
2. إن الإباحة في الآية في مقابل من ادّعى تحريم جملة من المباحات دون دليل؛ ذلك أنّ التشريع بأحكامه الخمسة يجب أن يرد من المشرّع الذي له الحقّ بالإباحة والمنع والتشريع. وفي هذا الباب ورد أنّ قبائل عربيّة هي: ثقيف، وخزاعة، وبنو عامر بن صعصعة، وبنو مدلج، كانوا قد حرّموا على أنفسهم أشياء من الحرث والأنعام، وأشار القرآن إلى بعضها في موارد عدّة، كما في قوله -تعالى-: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾[1]. والبحيرة: ناقة مشقوقة الأذن بعد خمسة أبطن، آخرها ذكر. والسائبة: المسيّبة لنذر. والوصيلة: الشاة إذا ولدت ذكراً وأنثى، لم يذبحوا الذكر، قد وصلته أخته. الحام: فحل لقّح عشرة أبطن، فحرموا ظهره، وقالوا حمي ظهره. قال -تعالى-: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن

(1) سورة المائدة، الآية 103.

نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[1]، ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

فقد أنكر القرآن الكريم التحريم الادّعائيّ غير المبتني على وحي أو دليل؛ لكونه افتراءً على الله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[3].

وقد أسّست الآية الشريفة: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا﴾ لأصالة الحلّيّة لما في الأرض ممّا أنبتته أو عاش عليها، إلّا ما خرج بالدليل. وهذا الأصل الشرعيّ يحلّ محلّ الأصل العقليّ السابق؛ لأنّه إذن مولويّ.

(1) سورة الأنعام، الآيات 138-140.
(2) السورة نفسها، الآيات 142-144.
(3) سورة يونس، الآية 59.

﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾:

الطيّب من كلّ شيء هو الملائم لطبيعته، فالطيّب من الطعام مقابل الخبيث، ويراد به ما كان مستساغاً ومناسباً لحاجات الجسد وطعام الأنعام، والطيّب من الرائحة ما يلائم حاسة الشمّ، والطيّب من القول الحسن الذي يرتاح إليه السمع، والطيّب من المكان ما كان ملائماً للعيش فيه.

وقد حرّم الله -تعالى- الخبائث: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[1].

وعليه، فيمكن الاستدلال على خبث الأشياء من خلال تحريمها، وإلّا لما حرّمت؛ إذ إنّ ثمّة علاقة بين الحلّيّة وبين كون الشيء من الطيّبات، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العلاقة بين الحرمة والخبائث.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾:

خطوات الشيطان هي كناية عن المسار الذي يسلكه ويدعو أصحابه إلى سلوكه، واتّباعها هو السير على أثره؛ لأنّ التابع لا يستقلّ بتحديد هدفه وَفق دراسة وتفكير وتشخيص للحاجات والوسائل، بل يقتفي أثر المتبوع، فيخطو وَفق خطوات متبوعه.

وقد نهى الباري -عزّ وجلّ- عن اتّباع خطوات الشيطان في أربعة مواضع في القرآن الكريم، هي:

1. ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾.

(1) سورة الأعراف، الآية 157.

2. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[1].

3. ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[2].

4. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾[3].

والملاحظ أنّ ثمّة موردين من الأربعة في مقام تحريم ما أحلّ الله من الأنعام والنعم، بينما ثمّة مورد واحد في سياق ذِكْر المفسدين في الأرض، مضافاً إلى مورد بيّن فيه المولى حرمة إشاعة الفاحشة ورمي المحصنات.

وعلى كلّ حال، فإنّ الشيطان لا يمكن أن يكون ناصحاً لأحد من البشر، فهو الذي بدأ رحلته مع الإنسان بالحسد والعداء، وهو الذي أخذ على عاتقه إضلال الناس ومنعهم من عبادة ربّهم، وقد ورد ذلك في موارد عدة من القرآن الكريم، منها:

1. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[4].

2. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[5].

(1) سورة البقرة، الآية 208.
(2) سورة الأنعام، الآية 142.
(3) سورة النور، الآية 21.
(4) سورة ص، الآية 82.
(5) سورة الحجر، الآيتان 39-40.

3. ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[1].

4. ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾[2].

ولذلك حذّرَنا الباري -عزّ وجلّ- من الشيطان، ونبّهَنا إلى غروره، وذلك من باب إقامة الحجّة علينا:

1. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾[3].
2. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[4].
3. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[5].
4. ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[6].
5. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[7].
6. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[8].

---

(1) سورة الأعراف، الآيتان 16-17.
(2) سورة النساء، الآيتان 118-119.
(3) سورة فاطر، الآية 6.
(4) سورة الإسراء، الآية 53.
(5) سورة البقرة، الآية 168، 208؛ سورة الأنعام، الآية 142.
(6) سورة الأعراف، الآية 22.
(7) سورة يوسف، الآية 5.
(8) سورة الكهف، الآية 50.

7. ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

8. ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

واسم الشيطان مأخوذ من: شطن إذا بعُد، وهو أبعد ما يكون عن رحمة الله؛ لأنّه نازع الله رداءه فتكبّر، وهو شريك كلّ عاصٍ وكلّ منحرف. ويُطلق اسم الشيطان على إبليس وعلى ذرّيّته الذين على منهجه، وعلى أتباعه وجنوده، ولو كانوا من الإنس.

والشيطان لا سلطان له: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[3]، ومع ذلك فقد اتّبعه من اتّبعه من الناس؛ وذلك أنّه يسلك طريق الإغواء والجذب، مستعملاً الدنيا وزينتها، ومستغلًّا غرائز الإنسان وشهواته. والآيات السابقة تكشف عن ذلك بوضوح.

الآية (169)

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

وممّا يأمر به الشيطان -وهو لا أمر له-: السوء، والفحشاء، وقول الزور (الكذب).

أمّا السوء، فهو كلّ ما يبعث على الحزن، وما ينتج مكروهاً، حتّى لو كان في ظاهره مرغوباً. وقيل: أصابه سوء، يعني مكروه.

(1) سورة يس، الآية 60.
(2) سورة الزخرف، الآية 62.
(3) سورة الحجر، الآية 42.

والشيطان يطلب من الإنسان أن يفعل السوء، وهو أعمّ من السوء بالنسبة إلى الفاعل والسوء بالنسبة إلى غيره، فكلّ عمل محرّم ففيه سوء للفاعل نفسه باعتبار نتيجته، وسوء بالنسبة إلى الآخر بشكل مباشر.

والفحشاء: القبيح، وما يشتدّ قبحه من الذنوب، وقد أطلقه القرآن على الزنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾[1]، وعلى اللواط: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[2]، ولكنّ الفحشاء تعمّ الأعمال الشديدة القبح كلّها: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[3]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[4].

وعندما يتصدّى الشيطان لإضلال الإنسان، يأتيه ويقعد له طريقه، فيقوم بأمور عدّة على مراحل:

1. يزيّن له الدنيا، ويظهر له حلاوتها ولذّتها عن طريق الوسوسة واستخدام المخيّلة.
2. يهوّن عليه المعصية، ويبرّرها له، ويطمئنه من العواقب.
3. إذا ارتكب الإنسان المعصية، وشعر بالخوف، فإنّه يدلّه على وسائل أخرى لحماية نفسه من الفضيحة والخوف، عن طريق اللجوء إلى الكذب، فيرتكب معاصي أخرى.

(1) سورة الإسراء، الآية 32.
(2) سورة النمل، الآية 54.
(3) سورة الأنعام، الآية 151.
(4) سورة الأعراف، الآية 33.

وإذا قاومه الإنسان دعاه إلى ذلك بالتدريج، فهو لا يدعوه دفعة واحدة، وإنّما يستدرجه استدراجاً، ففي بعض القصص المنقولة أنّه إذا صعب عليه باب طرق باباً آخر. ويُنقل أنّ عابداً امتنع من عبادة الشيطان، ومن القتل، فأغراه بالزنا، فلمّا زنا خاف الفضيحة فَقَتل، ولمّا انفضح وعده الشيطان بالنجاة من الصلب إذا سجد له ففعل[1].

وأمّا الكذب وقول الزور، فهو باب الرذائل وأصل الخبائث.

(1) انظر: التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، مصدر سابق، ص621.

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الكليني، الشيخ محمّد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، إيران-طهران، 1363ش، ط5.
3. الحميريّ، ابن هشام، السيرة النبويّة، تحقيق وضبط وتعليق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة عليّ صبيح وأولاده، مطبعة المدنيّ، القاهرة، 1383هـ.ق/ 1963م، لا. ط.
4. الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، ط1
5. الرضيّ، الشريف محمّد الرضيّ بن الحسن، نهج البلاغة (خطب الإمام علي عليه السلام)، شرح: الشيخ محمّد عبده، دار الذخائر، إيران - قم، 1412هـ - 1370ش، ط1.
6. أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي، مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، لا. ت، لا. ط.

7. ابن شهر آشوب، محمّد بن علي، مناقب آل أبي طالب، تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية، العراق - النجف الأشرف، 1376هـ - 1956م، لا. ط.
8. الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1403هـ - 1362ش، لا. ط.
9. الطوسي، الشيخ محمّد بن الحسن، مصباح المتهجّد وسلاح المتعبّد، مؤسّسة فقه الشيعة، بيروت، 1411هـ.ق/ 1991م، ط1.
10. الصدوق، الشيخ محمّد بن عليّ، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: عليّ أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، إيران - قم المقدّسة، 1379هـ.ق/ 1338هـ.ش، لا. ط.
11. الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ، ط1.
12. الطباطبائي، العلامة السيد محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1417هـ، ط5.
13. الطبرسيّ، أحمد بن عليّ، الاحتجاج، تعليق: محمّد باقر الخرسان، مؤسّسة النعمان، النجف الأشرف، 1386هـ.ق/ 1966م، لا. ط.

14. الليثيّ الواسطيّ، الشيخ كافي الدين أبو الحسن علي بن محمّد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، إيران - قم، 1418هـ، ط1.
15. الصفّار، محمّد بن الحسن، بصائر الدرجات، تصحيح وتعليق وتقديم: حسن كوچه باغي، مؤسّسة الأعلميّ، مطبعة الأحمديّ، إيران - طهران، 1404هـ.ق/ 1362هـ.ش، لا. ط.
16. الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي؛ الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ، ط2.
17. التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، مدرسة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، إيران - قم المقدسة، ربيع الأول 1409، ط1.
18. الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجادية، تحقيق: السيد محمّد باقر الموحد الابطحي الإصفهاني، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام / مؤسسة الأنصاريان للطباعة والنشر، إيران - قم، 1411هـ، ط1.
19. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا. ت، لا. ط.
20. الطبري، محمّد بن أبي القاسم، بشارة المصطفى، تحقيق: جواد القيومي الإصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1420هـ، ط1.

21. المجلسي، العلامة محمّد باقر بن محمّد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2.
22. البرقي، أحمد بن محمّد بن خالد، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1370 - 1330 ش، لا. ط.
23. البيهقي، أحمد بن الحسين، شعب الإيمان، تحقيق: محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1410 - 1990م، ط1.
24. السبزواري، الشيخ محمّد بن محمّد، معارج اليقين في أصول الدين، علاء آل جعفر، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، 1410 - 1993م، ط1.
25. ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، منشورات محمّد علي بيضون - دار الكتب العلمية، 1424هـ - 2003م، ط3.
26. الحلواني، الحسين بن نصر، نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، إيران - قم المقدسة، 1408هـ، ط1.
27. الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، ثواب الأعمال، تقديم: السيد محمّد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، إيران - قم، 1368 ش، ط2.

28. الصدوق، الشيخ محمّد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1414هـ، ط2.

29. ابن طاوس، السيد علي بن موسى، فلاح السائل، لا. ن، لا. م، لا. ت، لا. ط.